



يوهان فولفجانج جوته

تاسو

ترجمة وتقديم: عبدالغفار مكاوي



1358

روائع الدراما العالمية



كلاسيكيات الدراما العالمية

تاسو

تأليف : يوهان فولفجانج جوته
ترجمة وتقديم : عبد الغفار مكاوي



المركز القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة روائع الدراما العالمية
(كلاسيكيات الدراما العالمية)
المشرف على السلسلة أحمد سخسوخ

- العدد : ١٣٥٨

- تاسو

- يوهان فولفجانج جوته

- عبد الغفار مكاوي

- ٢٠٠٩

هذه ترجمة مسرحية :

Torquato Tasso

Von Johann Wolfgang Goethe

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

Tel: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

جوته ، يوهان فولفجانج ، ١٧٤٩ - ١٨٣٣
تاسو / تأليف : يوهان فولفجانج جوته ؛ ترجمة وتقديم :
عبد الغفار مكاوى
القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩
٢٤٤ ص ، ٢٤ سم
١ - المسرحيات الألمانية
(أ) مكاوى ، عبد الغفار (مترجم ومقدم)
(ب) العنوان
٨٣٢
رقم الإيداع ٢٠٠٩/٧١٠٥
الترقيم الدولى 978 - 977- 479-114-6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

لوحة بحياة جوته وعصره

١٧٤٨ (٢٠ - ٨) : المستشار القيصري ، يوهان كاسبار جوته يتزوج في سن الثامنة

والثلاثين في مدينة فرانكفورت على نهر الماين من كاتارينا
إليزابيث تكستور .

١٧٤٩ (٢٨ - ٨) : يوهان فولفجانج جوته يولد في فرانكفورت ، أكبر المدن الألمانية

بعد برلين وهامبورج ومن أهم مراكز التجارة فيها

١٧٥٠ : ولادة شقيقته كورنيليا (ماتت في سنة ١٧٧٠) . وفاة الموسيقي

العظيم «يوهان سيباستيان باخ» (ولد في سنة ١٦٨٥) .
الكاتب والفيلسوف الفرنسي الكبير «فولتير» (١٦٩٤ - ١٧٧٨)
يزور برلين .

١٧٥١ : بدء ظهور **الإنسيكلوبيديا** الفرنسية بإشراف «ديدرو» (١٧١٣ -

١٧٨٤) و«دلامبير» (١٧١٧ - ١٧٨٣) .

١٧٥٥ : ميلاد «فيليب زايدل» ، سكرتير جوته وصديقه الوفي (مات

سنة ١٨٢٠) . وفاة الكاتب والفيلسوف الفرنسي «مونتسكيو»
(ولد ١٦٨٩) .

«مس سارا سامبسون» أول تراجيديا برجوازية ألمانية «الليسنج»
تمثل على المسرح لأول مرة .

- ١٧٥٦ : جوته يكتب أولى قصائد شبابه .
- نشوب حرب السنوات السبع (التي استمرت حتى سنة ١٧٦٣)
- بين «فريدريش الثانى» ملك بروسيا وبين النمسا وفرنسا وروسيا والسويد والدولة الألمانية .
- المعرض الصناعى الأول يقام فى لندن ، إعدام فتاة صغيرة فى لاندرهوت (بافاريا) لاتهامها بمراهنة الشيطان ، وهى آخر ضحايا إحراق السحرة على يد المسيحيين المتعصبين .
- ١٧٥٧ : ميلاد «كارل أوجست» أمير فيمار وصديق جوته وراعيه (مات فى سنة ١٨٢٨) . بداية الاستعمار الإنجليزي للهند .
- ١٧٥٩ (١٠ - ١١) : ميلاد الشاعر الكبير «فريدريش شيلر» (فى مدينة مارباخ بمقاطعة فيرتمبورج) صديق جوته الحميم وزميله فى الكفاح لتأسيس الأدب الألمانى الجديد (مات سنة ١٨٠٥) .
- وفاة الموسيقار الكبير «هاندل» . ظهور الرسائل الأدبية «اليسنج» ، وكانديد أو التفاؤل لفولتير .
- ١٧٦١ : ظهور رواية (هيلويين الجديدة) «لجان جاك روسو» .
- ١٧٦٢ : ظهور ترجمة «فيالاند» (١٧٢٣ - ١٨١٣) النثرية لمسرحيات شكسبير ، التى تتم فى سنة ١٧٦٦ م .
- ظهور «إميل» و «العقد الاجتماعى» لروسو
- تمثيل أوبرا «أورفيوس وأويريديك» لجلوك (٧١٤ - ١٧٨٧)
- لأول مرة .
- ١٧٦٣ : السيادة البريطانية على أمريكا الشمالية .

«جيمزوات» الإنجليزي يخترع الآلة البخارية ، كما يخترع
النساج الإنجليزي «جيمز هارجريفز» آلة الغزل اليدوية. معرض
الكتب الأول في «ليبزج» .

(١٧٦٥ - ١٧٦٨) : جرت يدرس فى جامعة «ليبزج» . صداقته لـ «بيريش»

ولـ «كاتشن شون كويغ» ، ومشاهدته للعرض الأول لمسرحية ليسنج
«مينافون بارنهيلم» . يكتب مسرحية الرعوية الصغيرة نزوج العاشق .

١٧٦٥ : ظهور كتاب «ليسنج» المهم فى تاريخ النقد الأدبى «لا أكون أو

الحدود بين الرسم والشعر» .

وفاة «جوتشيد» ، وهو من أهم كُتَّاب عصر التنوير فى ألمانيا
وأكبر النقاد الداعين إلى ربط الأدب الإنجليزي بالأدب الفرنسى
والاقتداء به .

١٧٦٨ : مرض «جوته» وعودته إلى «فرانكفورت» .

قراءة مستفيضة للأدبيين الألمان المعاصرين له «فيلاند»
و«كلويشتوك» ولـ «شكسبير» وفيلسوف عصر النهضة وطبيبها
وعالمها المشهور «باراسيلزوس» . عالم الآثار ومؤرخ الفن
«فنكلمان» ، أحد رواد الحركة الأدبية الكلاسيكية . يموت مقتولاً
فى تريستا . حزن جوته عليه .

ظهور كتاب الفيلسوف العالم المؤرخ «هيردر» - صديق جوته
وصاحب الأفضال عليه فى شبابه - مذكرات رحلته فى
سنة ١٧٦٩ من ريجا إلى نانتس الذى يعلن قيام الحركة الأدبية
المعروفة بحركة العاصفة والاندفاع .

(١٧٧٠ - ١٧٧١) : جوته يواصل دراسة القانون في «شتراسبورج» ويحصل على

«الليسانس» . يتعرف على «هيردر» و«لنس» (من أهم أدباء

حركة العاصفة والاندفاع) . يتأثر بمشاهدته لكاتدرائية المدينة

(المونستر) ، حبه لـ «فردريكه بريون» ابنة قسيس «زيزنهيم».

: «ليسنج» يذهب إلى مدينة «فولفنبوتل» ، حيث يعمل أميناً لمكتبتها . ١٧٧٠

: «جوته» يعود إلى «فرانكفورت» ويلقى خطبته المشهورة في ١٧٧١

الاحتفال بذكرى «شكسبير» التي يقول فيها إن الشاعر

الإنجليزي الأكبر هو الذي أيقظه من سباته وأنه بدأ حياته

الأدبية بعد قراءته له - يكتب مسرحيته **جوتزفون برلشنجن** في

صورتها الأولى .

ظهور مسرحية **إميليا جالوتي** لـ «ليسنج» .

: يذهب في شهر مايو إلى «فتسلار» ليتدرب على أعمال المحاماة ١٧٧٢

ويقع في غرام «شارلوتة بوف» التي كانت مخطوبة في ذلك

الحين . يعود في شهر سبتمبر إلى «فرانكفورت» ويسمع بخبر

انتحار العاشق اليأس «جيروزاليم» الذي سيدفعه إلى

كتابة «فرتر» .

تأليف اتحاد من المعجبين بالشاعر الكبير «كلويشتوك» من طلبة

جامعة «جوتنجن» وأدبائها ينادى بمحاربة الذوق الفرنسي

وتجديد الأدب الألماني .

: ظهور مسرحية «**جوتزفون برلشنجن**» التي تلفت إليه الأنظار . ١٧٧٣

ظهور مقالته عن «فن البناء الألماني» وبداية العمل في الكتابة

الأولى من «فاوست» وهى المعروفة بـ «بفاوست الأولى»
أو «أصل فاوست» .

«لنس» ينشر مسرحيته «المعلم» .

: يتعرف على فيلسوف الأديان «لافاتر» (١٧٤١ - ١٨٠١) الذى

١٧٧٤

سيصبح من أعز أصدقائه ، وعلى «كارل أوجوست» الذى
سيصبح أميراً لـ «فيمار» وراعياً وصديقاً لـ «جوته» .

ظهور مسرحية «كلافيجو» ورواية «أحزان فرتر» ونجاحهما
نجاحاً هائلاً فى داخل البلاد وخارجها

«كلويشتوك» (١٧٢٤ - ١٨٠٣) يتم ملحمته الشعرية الكبرى
«المسياس» .

: حبه لـ «ليلي شونمان» - رحلته الأولى إلى سويسرا . ينتهى من

١٧٧٥

مسرحية «ستلا» ويبدأ فى «إجمونت» .

«كارل أوجوست» يتولى إمارة فيمار .

بداية حرب الاستقلال الأمريكية التى ستستمر إلى عام ١٧٨٣ -
دون مقاطعة «هسن» فى ألمانيا يبيع للإنجليز ١٢٨٠٠ من رعاياه
للاشتراك فى الحرب الدائرة فى شمال أمريكا

١٧٧٥ (١٠ - ٣) : «جوته» يسافر إلى فيمار . صداقته لـ «كارل أوجوست» توجيه

الدعوة إلى «هيردر» .

: حبه لـ «شارلوتة فون شتاين»

١٧٧٦

كتابه مسرحيته القصيرة «الأخوان» . وصول هيردر .

بداية الصناعة البخارية فى إنجلترا .

- الولايات الأمريكية الثلاث عشرة تعلن استقلالها عن إنجلترا .
- «كلينجر» (١٧٥٢ - ١٨٢١) ينشر مسرحيته «العاصفة والاندفاع» التي سميت الحركة الأدبية المعروفة باسمها .
- ١٧٧٧ : وفاة شقيقته «كورنيليا» . رحلته إلى منطقة جبال الهارس .
- بداية العمل في روايته الكبرى «فيلهلم ميستر» .
- ١٧٧٨ : سفره إلى برلين . ظهور أشعار جوتفريد أوجوست بورجر التي تلقى هجوماً شديداً من شيلر . ظهور مسرحية «ليسنج» «ناتان الحكيم» .
- ١٧٧٩ : يعين مستشاراً، يبدأ في كتابة مسرحيته «إفجينيا»، ويقوم برحلته الثانية إلى سويسرا، كما يبدأ في كتابة مسرحيته «تاسو» .
- ١٧٨٠ : ينغمس في دراسة العلوم الطبيعية والتشريح والعظام . وفاة «ليسنج» . ظهور كتاب «كانت» (١٧٢٤ - ١٨٠٤) . نقد العقل الخالص ، وترجمة «فوس» (١٧٥١ - ١٨٢٦) للأريسة .
- ١٧٨١ : يرقى إلى طبقة النبلاء . وفاة أبيه . عرض مسرحية «شيلر» الأولى «الصوص» على مسرح مدينة «مانهايم» وهروبه إليها من «شتوتجارت» .
- ١٧٨٤ : يكتشف عظمة الفكين في الإنسان .
- ١٧٨٥ : تركيب أول آلة بخارية في ألمانيا . زيارة جوته لـ «كارلزباد» وتوقيعه عقداً لنشر أعماله الكاملة .
- ١٧٨٦ : يقوم برحلته المشهورة إلى إيطاليا .
- ١٧٨٧ : ظهور «إفجينيا» .

١٧٨٨ : العودة إلى فيمار ، الانتهاء من مسرحية **أجمونت** . حبه

لـ «لكرستينه فولبيوس» ، وكانت عاملة بسيطة فى أحد مصانع الزهور ، وحياته معها . آخر حوادث حرف الملحين فى إسبانيا .

١٧٨٩ : ميلاد ابنه الوحيد «أوجست» (مات سنة ١٨٣٠) ، كتابة قصائده

«مراشى روما» والانتهاى من مسرحية «تاسو» . التعرف على الفيلسوف والعالم اللغوى الإنسانى الكبير «فلهم فون همبولت» (١٧٦٧ - ١٨٣٥) . اندلاع الثورة الفرنسية (الهجوم على سجن الباستيل فى ١٤ من يولية) وإعلان حقوق الإنسان . إعلان دستور الولايات المتحدة وتعيين «جورج واشنطن» أول رئيس لها (١٧٣٢ - ١٧٩٩) .

اختراع القسيس الإنجليزى «كارترى» المغزل الميكانيكى . أزمة الصناعات اليدوية .

١٧٩٠ : رحلة جوته الثانية إلى إيطاليا . دراسات فى البصريات . ظهور

الجزء الذى تم من فاوست . وفاة «أدم سميث» ، أكبر الاقتصاديين الكلاسيكيين فى إنجلترا

(١٧٩١ - ١٨١٦) : «جوته» يشرف على مسرح بلاط فيمار ، ويسهم فى التمثيل

وتدريب الممثلين واختيار النصوص . وفاة «كريستيان دانييل فريدريش شوبارت» أحد شعراء حركة العاصفة والاندفاع ، ومن أهم المكافحين فى سبيل العدالة والديمقراطية . عرض أوبرا «النأى السحري» لـ «موزارت» (١٧٥٦ - ١٧٩١) لأول مرة على المسرح ، وقد أحبها جوته وأعجب بها كثيراً .

- (١٧٩٢ - ١٧٩٣) : كتابة الملحمة الشعرية «ريثيكه فوكس» على لسان الحيوان .
- ١٧٩٢ : إعلان الجمهورية فى فرنسا وتشكيل الجمعية الوطنية .
- شيلر وكلويشتوك مواطنًا شرف للجمهورية الفرنسية .
- ١٧٩٣ : ميلاد «يوهان بيتر اكرمان» المشهور بأحاديثه الرائعة مع جوته .
- إعدام «لويس السادس عشر» فى فرنسا ، واستيلاء اليعاقبة على السلطة . ثورة عمال الغزل فى إنجلترا .
- ١٧٩٤ : الحديث الأول بين جوته وشيلر وبداية الصداقة والمراسلات المهمة بينهما . نهاية دكتاتورية اليعاقبة فى فرنسا، وبداية الحركات المضادة للثورة .
- (١٧٩٥ - ١٧٩٧) : شيلر يصدر مجلة «الهورن» التى يشارك جوته بالتحرير فيها .
- ظهور رواية فيلهلم ميستر -- سنوات التعلم .
- نشر «الأكزين» وهى مقطوعات شعرية تهكمية على رجال العصر بالاشتراك مع شيلر . ظهور كتاب «كانت» عن السلام الدائم .
- ورسائل «شيلر» عن التربية الجمالية للإنسان .
- ١٧٩٧ : يكتب قصائده القصصية البالادين . ويصدر ملحمة الشعرية هومان وبوروثيا ويقوم برحلته الثالثة إلى سويسرا . ظهور رواية «هولدرلين» (١٧٧٠ - ١٨٤٣) هيبيريون أو الناسك فى بلاد الإغريق .
- (١٧٩٨ - ١٧٩٩) : بداية مراسلاته مع «تسلتر» ، نابليون، يقوم بانقلاب فى فرنسا .
- (١٧٩٨ - ١٨٠٠) : انشغال «جوته» ببحوثه فى نظرية الألوان ومشاركته فى تحرير البروبيلان عرض ثلاثية «شيلر» المسرحية الكبرى فالنشتين .

«أوجست فيلهلم شليجل» ، (١٧٦٧ - ١٨٤٥) وشقيقه «فريدريش شليجل» (١٧٧٣ - ١٨٢٩) يصدران مجلة **أثينايوم** التى ستنطق بلسان الحركة الرومانتيكية المبكرة .

: «نوفاليس» (١٧٧٢ - ١٨٠١) ينشر فيها «**أناشيد إلى الليل**» ، بعد وفاة خطيبته . ظهور رواية جان باول (١٧٦٣ - ١٨٢٥) **تيتان** .

: ظهور مسرحية جوته «**الابنة الطبيعية**» .
: «نابليون» يتوج نفسه إمبراطوراً . وفاة «شيلر» فى «فيمار» فى اليوم التاسع من مايو . نابليون يهزم جيوش النمسا وروسيا فى «أوسترلتز» ، و «نيلسون» يهزم الأسطول الفرنسى فى «الطرف الأغر» .

: الانتهاء من القسم الأول من **فاوست** و**ظهورها** فى سنة ١٨٠٨ م .
القوات الفرنسية تحتل فيمار وتنهبها . جوته يتزوج رسمياً من «كريستينه فولبيوس» فى ١٩ من أكتوبر بعد موقفها الشجاع فى الدفاع عنه من اعتداء الفرنسيين . جوته يتابع دراسة نظريته فى الألوان وينصرف إلى أبحاثه فى الجيولوجيا والمورفولوجيا .
«لودفيج أرنييم» (١٧٨١ - ١٨٣١) و «كليمنس برنتانو» (١٧٧٨ - ١٨٤٢) يصدران مجموعة من الأغاني الشعبية الألمانية بعنوان **بوق الصبى المسحور** ويهريان الجزء الأول منها إلى جوته .
انهيار بروسيا بعد هزيمتها فى معركة «بينا» و «أورشتيت» .
الفرنسيون يحتلون «برلين» . نهاية «الدولة الرومانية المقدسة للأمة

الألمانية» وخلع «فرانز الثانى» تاج الإمبراطورية . تكوين اتحاد الراين تحت وصاية «نابليون» لفرض حصار أوروبى على البضائع الإنجليزية .

(١٨٠٧ - ١٨٠٨) : جوته يحب «ميناهيرسليب» . «هيجل» (١٧٥٥ - ١٨٣١) يصدر كتابه **ظاهريات الروح** .

١٨٠٨ : وفاة والد جوته . يقابل نابليون فى الثانى من أكتوبر. ظهور مسرحية **باننورا** . مسرحية «كلايست» (١٧٧٧ - ١٨١١) . **الجرة المهشمة** تعرض على مسرح فيمار تحت إشراف جوته . ثورة الشعب الإسبانى ضد نابليون . ظهور خطابات «فشته» (١٧٦٢ - ١٨٠٤) إلى الأمة الألمانية .

١٨٠٩ : جوته ينتهى من روايته **الأنساب المختارة** .

١٨١٠ : صدور نظرية الألوان . تأسيس جامعة برلين .

(١٨١١ - ١٨١٢) : ظهور الجزءين الأول والثانى من مذكرات حياة جوته «**من حياتى، شعر وحقيقة**» .

١٨١٢ : فى «كارلزباد» و «تيليتس» . مقابلته لـ «بيتهوفن» . حملة «نابليون» على روسيا وهزيمته . الأخوان «يعقوب» و «فيلهلم جريم» يصدران مجموعة حكايات الأطفال الشعبية التى قاما بجمعها من مختلف البلاد الألمانية.

١٨١٣ : الثورة الألمانية ضد «نابليون» . هزيمته فى معركة «الشعوب» قريباً من «ليبزج» ، وحل اتحاد الراين .

- ١٨١٤ : يواصل العمل فى الجزءين الثالث والرابع من ذكريات حياته . ويكتب أولى قصائد الديوان الشرقى . بداية مؤتمر «فيينا» الذى يحتفل بالانتصار على نابليون ويعدّه انتصاراً على الثورة الفرنسية . عودة أسرة «البوريون» (لويس الثامن عشر) إلى الحكم فى فرنسا ومحاكم التفتيش فى إسبانيا .
- (١٨١٤ - ١٨١٥) : رحلات على نهري الراين والماين . حب «ماريانه فيليم» . الديوان الشرقى للمؤلف الغربى .
- ١٨١٥ : ظهور رواية «أيشندورف» (١٧٨٨ - ١٨٥٧) الإحساس والحاضر . عودة نابليون من منفاه فى جزيرة ألبا وهزيمته ونفيه إلى «سانت هيلينه» . تأسيس الاتحاد الألمانى من ٣٤ مملكة مستقلة وأربع مدن حرة. حكام روسيا والنمسا وبروسيا يؤسسون «الحلف المقدس» والهدف منه الضغط على كل الثورات الشعبية .
- ١٨١٦ : وفاة زوجته «كريستينا» .
- ١٨١٧ : زواج ابنه «أوجست» . يعتزل الإشراف على المسرح . يترجم بعض أجزاء من مسرحية مانفريد للورد «بيرون» (١٧٨٨ - ١٨٢٤) .
- ١٨١٨ : منع تمثيل مسرحيته أجمونت فى برلين .
- ١٨١٩ : ظهور الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ، ثمره عشرة طويلة مع شعر «حافظ الشيرازى» وعالم الشرق والإسلام .
- ١٨٢٠ : وفاة سكرتيره «فيليب زايدل» .

- ١٨٢١ : العمل فى الجزئين الأول والثانى من رواية **فيلهم ميستر** ،
سنوات التجوال .
- ١٨٢٣ : رحلته إلى مارينباد وحبه لـ «أولريكه فون ليفيتسوف» .
- ١٨٢١ : وفاة نابليون فى منفاه فى «سانت هيلانه» .
- ١٨٢٣ : يكتب **مرثاة مارينباد** . السيمفونية التاسعة لـ «بيتهوفن» .
- ١٨٢٥ : العمل فى القسم الثانى من **فاوست** . يتلقى من «فرانز شوبرت»
«(١٧٩٧ - ١٨٢٨) الألحان التى وضعها لبعض قصائده .
- ١٨٢٧ : بدء ظهور طبعة أعماله الكاملة فى أربعين جزءاً . وفاة حبيبته
القديمة «شارلوتة فون شتاين» . ظهور ديوان الشاعر «هينى»
كتاب الأغانى .
- ١٨٢٨ : نشر رسائله مع «شيلر» . وفاة الأمير «كارل أوجست» .
- ١٨٢٩ : ظهور **فيلهم ميستر** ، **سنوات التجوال** ، والجزء الثالث من رحلته
الإيطالية . قراءته لمذكرات «سان سيمون» أحد الاشتراكيين
الفرنسيين المثاليين .
- ١٨٣٠ : وفاة ابنه «أوجست» . الشاعر البولندى الكبير «مكيفيتش»
(١٧٨٩ - ١٨٥٥) يزوره فى فيمار .
- ١٨٣١ : يتم القسم الثانى من **فاوست** ، والجزء الرابع من **شعر وحقيقة** .
«ستندال» ينشر روايته **الأحمر والأسود** .
- ١٨٣٢ : بداية مرضه الأخير ووفاته فى صباح اليوم الثانى والعشرين من
شهر مارس .

* * *

مقدمة المترجم

لم يكن جوته من الشعراء الذين تخطر لهم الفكرة فيسرعون كالمحمومين بتدوينها على الورق، ثم لا يطيقون بعد ذلك أن يلقوا عليها نظرة واحدة ! لقد كانت تأتية الفكرة فيبدأ في كتابتها، ثم يدركه التعب أو يناله السأم أو تشغله مشاغل الحياة، فيتركها ناقصة . وقد يعود إليها في خلال أيام أو أشهر أو سنين - ربما امتدت نصف قرن كما فعل في مسرحيته الكبرى فاوست - فيضيف إليها أو يعدل فيها أو يعيد صياغتها في وزن جديد أو يكتبها شعراً، بعد أن بدأها نثراً . وقد يحس أن الفكرة لم تنضج النضج الكافي ، فينتقل إلى مشروع آخر كان قد بدأه ولم يتمه، فيقطع فيه شوطاً ثم يدركه إلى غيره . وتواصل هذه الأفكار حياتها الخاصة في ضميره ، وكأنها تنتظر حتى يتم خلقها، وتأتي اللحظة المناسبة التي تخرج فيها إلى النور . ولكن اللحظة يطول غيابها ، ويلج الأصدقاء والمحبون على الشاعر ليستأنف عمله من جديد . ولكن انشغاله بأعباء العمل أو السياسة ، وإقباله النهم على نعم الحياة الخصبة والحب المتجدد ، وانصرافه إلى مختلف الأبحاث العلمية في النبات والطب والألوان وطبيعة الأرض والجو والصخور ... إلخ، يؤخر إنجاز الوعود ، ويزيد من التشتت والتردد ، غير أن الإلهام السعيد لا يخيب ظنه ، بل يقبل في موعده المحتوم ويفرض قانونه الضروري ، وإذا بالشاعر ينجز عمله في ساعات أو أيام معدودة ، كما فعل في «فرتر» وفي معظم قصائده وقصصه الصغيرة ، أو في شهور قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، أو في سنوات تمتد امتداد العمر كله !

ومسرحية تاسو من هذا النوع من الأعمال الشعرية التي بدأها الشاعر ثم انتظر ما يزيد على ثمانى سنوات حتى تم لها النضج . فنحن نعثر على أول أثر لها

فى ملاحظة، بونها فى مذكراته اليومية فى الثلاثين من مارس عام ١٧٨٠م، حيث يقول: « ابتكار طيب : تاسو » . ولكن يبدو أنه لم يبدأ فى الكتابة إلا بعد هذا التاريخ بفترة طويلة . تشهد على ذلك ملاحظة أخرى، سجلها فى مذكراته اليومية فى الرابع عشر من أكتوبر من السنة نفسها، حيث نجده يقول : بدأت الكتابة فى «تاسو» . ثم تتابع رسائله فى الشهرين التاليين إلى حبيبته المشهورة «فراوفون شتاتين»، فيحدثها عن مشروعه الجديد . ويواصل العمل فى مسرحيته إلى أوائل عام ١٧٨١م ، تشهد على ذلك رسالة كتبها إليها من «فيمار» فى العشرين من أبريل حيث يقول : « لا أريد أن أقول لك شيئاً عن نفسى ولا عن الغد . لقد تعبدت وأنا أكتب فى «تاسو» ، روحى كلها لديك . اليوم أريد أن أنشط للعمل » .

ويبدو أن جوته قد استطاع أن يقطع شوطاً كبيراً فى مسرحيته ، بحيث استطاع فى اليوم العاشر من نوفمبر أن يقرأ المشهد الأول منها على صديقه «كنيبيل»، وأن يتم الفصل الأول كله، ويشرع فى الفصل الثانى . ولكن العمل توقف من جديد على أواخر ذلك العام ، حيث نجده يتحدث فى إحدى رسائله التى كتبها فى ذلك الحين عن المسرحية الناقصة . ويبدو كذلك أنه عاد إليها فى ربيع سنة ١٧٨١م ، وأنه قد بلغ فيها ما يشبه النهاية المؤقتة . مهما يكن من شىء، فقد كتب جوته مسرحيته فى هذه المرحلة بالنثر الشعري أو بالشعر المنثور، كما نقول اليوم ، ثم عاد إلى التفكير فى تعديلها وإعادة صياغتها شعراً فى أثناء رحلته المشهورة إلى إيطاليا ، بين سنتي (١٧٨٦ و ١٧٨٨م) حتى أتمها فى صورتها النهائية المعروفة فى سنة ١٧٨٩م . وأردنا أن نتتبع خطواته فى هذه المرحلة، فوجدناه يكتب من روما إلى صديقه «كنيبيل» رسالة بتاريخ ١٩ فبراير سنة ١٧٨٧م يقول فيها : « أنا الآن أعمل فى «تاسو» التى ينبغى الانتهاء منها » . ويدون فى مذكرات رحلته الإيطالية وهو فى طريق البحر من نابولى إلى «باليرمو» هذه السطور فى الثلاثين من مارس من السنة نفسها . « لم أخذ معى من بين أوراقى كلها سوى الفصلين الأول والثانى من «تاسو» اللذين كتبتهما منذ عشر

سنوات ولم يزل في خطتهما وسير أحداثهما شبيهين بما أفكر فيه اليوم - كان فيهما شيء من النعومة والضبابية، لم يلبث أن اختفى عندما غيرت رأيي فيهما فأحكمت بناء الشكل وأدخلت فيهما الوزن والإيقاع » .

وواصل جوته تفكيره في مسرحيته وراح يتعذب بينه وبين نفسه في إعادة صياغتها من جديد . فهو يقول في اليوم الأخير من شهر مارس في مذكرات رحلته : « .. بدأت أمواج البحر ترتفع ، ومرض أغلب المسافرين ، وبقيت في مكاني المألوف . أفكر في المسرحية كلها من أولها إلى آخرها » ، ثم يقول في اليوم التالي مباشرة : « تجرأت أحياناً على الصعود إلى ظهر السفينة ، ولكنني لم أدع مشروعى الشعري يغيب عن بالي ، حتى استطعت إلى حد كبير أن أتحكم في المسرحية كلها » . ويواصل كلامه في الثاني من أبريل فيقول : « وجدنا أنفسنا في الثامنة صباحاً أمام «باليرمو» . فقد كانت خطة هذه المسرحية قد ازدهرت في الأيام الأخيرة في بطن الحوت » .. ومع هذا كله، فيبدو أن الشاعر لم يكن قد غير تغييراً يذكر في النسخة الأولى التي كتبها نثراً ولم يعثر عليها الباحثون حتى اليوم . وقد رجع في الفصلين اللذين أتمهما منها ، ثم عاد فيما بعد إلى صياغتها شعراً إلى حياة الشاعر الإيطالي «توركوأتو تاسو»^(١) .

(١) توركوأتو تاسو (ولد في سورنت في سنة ١٥٤٤م ومات في روما في سنة ١٥٩٥م) من أكبر الشعراء الإيطاليين ، ومؤلف الملحمة الوطنية الكلاسيكية في أواخر عصر النهضة كان أبوه «برناردو» شاعر ملاحم وموظفاً في البلاط ، درس القانون والفلسفة والبلاغة في «بادوا وبولونيا» ، ثم التحق في سنة ١٥٦٥م بخدمة الكاردينال «لويجي دسته» في مدينة «فرارا» ، واكتسب صداقة الأمير «الفونس الثاني» وأصبح شاعر البلاط ، وعاش محاطاً بالرعاية والتكريم حتى أنتابته الشكوك الدينية والنفسية فأصيب بجنون الاضطهاد أو بجنون الكآبة وهرب سراً إلى شقيقته «كورنيليا» في مينة «سورنت» . رجع مرتين إلى «فرارا» ، غير أن حالات الجنون عاودته فادخل في مستشفى «سانتا أنا» في سنة ١٥٧٩م ، وبعد أن غادر المستشفى في السنة نفسها، عاش بقية حياته شريداً هائماً على وجهه ألف عدداً كبيراً من القصائد التي حاول فيها إحياء التراث الشعري الإيطالي الذي أسسه «بتاركا» ، وبعد أن ألف مأساة على غرار أوديب كان نصيبها الفشل ، وضع مسرحيته «الرعوية أمينتا» في سنة ١٥٧٣م =

كما كتبها «جوفاني باتيستا مانسو» ، وملأها دون ترو أو تدقيق بالخرافات والأقاصيص عن حياة هذا الشاعر الكبير . ومع ذلك فقد استفاد شاعرنا كثيراً من القصة التي اخترعها (مانسو) من خياله وزعم فيها أن تاسو قد هام حبا بالأميرة ليونوره شقيقة ألفونس الثاني أمير «فران» الذي استضاف الشاعر ورعاه .

لم يشعر جوته بالحاجة إلى كتابة مسرحيته في ثوب شعري جديد إلا أثناء رحلته في إيطاليا . لقد أحس بأن عليه أن يستبعد منها الليونة والغموض ، فيحكم بناء شكلها ويصوغها في إيقاع شعري يليق بموضوعها الرفيق النبيل ، ألا وهو الصراع الخالد بين الشاعر والواقع ، وبين عالم الفن وعالم السياسة . ولقد زاد هذا الإحساس لديه حتى كاد يصبح أزمة حادة يعبر عنها قوله في أثناء زيارته الثانية لمدينة روما في اليوم الأول من فبراير سنة ١٧٨٨م : « . ثم أعانى أزمة جديدة ، لا يستطيع أحد أن يشير إلى فيها أو يعينني عليها . يجب أن تصاغ «تاسو» صياغة أخرى ، فما لدى منها الآن لا ينفع في شيء ، ولا يمكنني أن أختمه أو أقذف به بعيداً هكذا حكم الله على الإنسان بكل هذا الغناء ! » وتلج عليه الأزمة في أواخر مدة إقامته الثانية في روما . فها هو ذا يقرأ من جديد عن حياة «تاسو» كما كتبها «أباني بيير أنطونيو

= التي تميزت ببساطتها وصنقها ولغنها الموسيقية، وتعد في نوعها من أنجح الأعمال الشعرية في الأدب الإيطالي . أما عمله الرئيسي فهو منحة الوطنية القدس المحررة La Gerusalemme liberata (١٥٨١م)، وتصور تحرير جيش الصليبيين تحت قيادة «جوتفريد فون بويون» لمدينة القدس والمحنة نسيج كبير من حكايات البطولة والحب والفداء . ولكنها تدور أساساً حول هذه الحملة الصليبية. وقد تردد «تاسو» طويلاً في نشر ملحته وراح يأخذ آراء كبار الشعراء في عصره حتى وصل به الأمر إلى تقديم نفسه لمحكمة التفتيش لتختبر إيمانه وتجبر ملحته . وقد ألف في أواخر حياته (١٥٩٣م) ملحمة أخرى بعنوان القدس المفتوحة La Gerusalemme conquistata ، وهي ملحمة دينية خالصة ليست لها قيمة شعرية تذكر . وتعكس أشعار «تاسو» مشاكل عصره التي كانت سبباً فيما أصابه من كآبة وتشكك ، انتهاء به إلى الجنون والضياع نتيجة انتشار الإصلاح الديني المضاد وغلبة التشكك في أمور الدنيا والآخرة

«سيراستى» ، وكانت قد ظهرت فى روما فى سنة ١٧٨٥م . ويعكف على دراسة هذا لكتاب ، ويأخذ منه أشياء جديدة عن الصراع الذى دار بين «تاسو» ورجال البلاد والسياسة كما يتعرف على شخصية «أنطونيو مونتكاتينو» الذى سيقوم بدور مهم فى المسرحية ، ويساعد مع صراع الحب الياأس على بلوغ الأزيمة فى نفس «تاسو» إلى نروتها ، حتى يصل الصدام بينه وبين عالم السياسة والواقع الذى يمثله «أنطونيو» إلى قمته فى جنونه الأخير .

ويبدو أن جوته قد ضاق بالمسرحية أو تهيّب من إعادة صياغتها . غير أن سحر شخصية «تاسو» كان أقوى من كل تردد ، وطبيعته كانت تنبع من أعماق أعماقه ، بحيث نضج العمل كله على أواخر رحلته الإيطالية ، فأقبل فى خريف ١٧٨٨م بربيع ١٧٨٩م بكليته على العمل ، حتى لنجده يكتب إلى صديقه وراعيه الأمير كارل أوجوست « فى فبراير ١٧٨٩م فيقول : إن «تاسو» ينمو كشجرة البرتقال فى بطن شديد . فلعله أن يؤتى ثماراً حلوة » . واستضاء الشاعر أن يتم مسرحيته فى شهر يونيو عام ١٧٨٩م ، وأن يشنرها فى المجلد السادس من طبعة أعماله الكاملة .

* * *

ما من عمل مسرحى يخلو من الصراع أو يستطيع أن يستغنى عنه . ولقد تحدث جوته بنفسه عن الصراع فى هذه المسرحية فوصفها فى صورة عامة مجردة ، بأنها تعالج موضوع التنافر بين الموهبة والحياة . كما وصف أحد النقاد «تاسو» بأنه «فرتر» متطرف أو مبالغ فى لهيب حماسه وعواطفه .

والحق أن هذا هو الانطباع الأول الذى يشعر به القارئ من المسرحية ، دون حاجة منه إلى مزيد من التعمق والتحليل . ففى المسرحية عالمان يواجه كل منهما الآخر ويصطدم به ؛ هناك عالم المجتمع والسياسة ، يمثله الوزير «أنطونيو» والأمير «ألفونس»

والدوقة «ليونورا سانفيتاله» . وهو عالم تغلب عليه روح الحكم والسيادة ويتميز بوضوح الرؤية العقلية ، وطموح الغريزة العملية . وهناك عالم الشعور والفن الذى يرفرف فيه «تاسو» كالبائر الوحيد، فيخلق إلى أعلى القمم ويهبط إلى أسفل الأعماق، ويهيب دائماً بعظمة الماضى ويحيا على ذكرى الشعراء العظام . ثم يحاول أن يعيش فى الحاضر أو ينسجم مع الواقع فيشعر بعجزه ، ويزداد إحساساً بانكساره . إنه عالم المطلق والجوهر والفن النقى الخالص الذى لا يمكن أن يقاس به العالم السابق أو يرتفع إلى مستواه ، غير أن هذا التنافر بين العالمين لا يستطيع وحده أن يفى مسرحيتنا حقها أو يفسر مأساة بطلها . فوجه الخطورة فيه أنه قد يغرينا بالتفسير النفسى لشخصية البطل ، أو إرجاع موقفه التراجيدى إلى ما يوصف به من شذوذ أو تطرف أو جنون، وهى أمور عرضية لا يمكن أن تنشأ عنها مأساة حقيقية ، ذلك أن سر مأساة «تاسو» أنه يحس كما لا يحس أحد من المحيطين به بذلك الطموح المطلق الذى ينزع إليه الفنان بطبيعته ، كما يشعر بالعجز الضرورى لهذا الطموح ، ويرفض فى الوقت نفسه أن يقتنع به أو يستسلم له . هذا الخلاف الأساسى بين عالم الخيال وعالم الواقع هو الإطار الذى تدور فيه أحداث المسرحية . وهو خلاف يبلغ من الشمول والعمق حداً، تتصدع معه العلاقات الإنسانية بين الأفراد ، كما يتصدع وجود البطل نفسه من جذوره . ذلك لأنه - مثله فى ذلك مثل هاملت - يسمع صوتاً لا يسمعه أحد سواه ، ويكلف برسالة لا يستطيع أن يحققها فى الواقع على الوجه الذى يرضيه ، ويحمل أمانة المطلق أو الحقيقة أو الفن . بغير أن تكون لديه الوسائل الكفيلة بأدائها فى دنيا الأرض والواقع ، أو بغير أن يجد فى هذا الواقع أى استعداد لتلقيها . إنه يجد نفسه ملقى به فيما يمكن أن نسميه «منطقة القدر» يحيط به نظام من الأشخاص والعلاقات، كرس كل جهده لتحقيق الأهداف والمنافع . وهو يشعر بعجزه عن تعديل هذا النظام أو الاندماج فيه . والمشهد الثالث من الفصل الأول أساسى فى فهم المغزى العام من المسرحية وإلقاء الضوء على موقفها من الزمن والتاريخ . فنحن نرى فى هذا المشهد كيف ينعزل وجود الشاعر، وتنعزل كلماته عن عالم الواقع الذى يعيش فيه

وكيف يفقد هذا العالم الزخير روحه ومعناه . ولذلك فإن «تاسو» لا يتعب من التعبير عن شوقه إلى الزمن الماضى لأنه يجد فيه - على خلاف الحاضر المحيط به - أن الحقيقة والواقع ، والشاعر والبطل ، والحكمة والفعل تنجذب إلى بعضها بقوة أشبه بقوة المغناطيس . والحديث عن اللقاء بين «تاسو» والأميرة لا يبعد بنا عن موضوع المسرحية كما حدّدناه فى السطور السابقة . فقد كان هذا اللقاء هو نواة المسرحية، كما تصورها جوته فى البداية ، ولعله كان هو الباعث الذى دفعه إلى كتابتها بعد أن وجد فيه صدئ لحياته وعذابه فى ذلك الحين . وأهم ما ينبغى إبرازه فى هذا اللقاء هو تلك العناصر التى تشهد على صلة القربى التى تربطها بفلسفة أفلاطون . وقد تنبه الباحثون إلى ذلك، وأكثروا من الإشارة إليه . وليس من قبيل المصادفة أن نسمع الدوقة «ليونورا سنفيتاله» تصف الأميرة فى نهاية المشهد الأول من الفصل الأول فتقول إنها تلميذة أفلاطون :

«أمثلك يا تلميذة أفلاطون لا تفهم ما تجرؤ مستجدة على الثثرة به» وذلك بعد أن وصفت شاعرنا قبل ذلك بسطور قليلة وصفًا لا ينطبق إلا على أفلاطونى يتأمل المثل، أو يتأمل النموذج الأوحى الأسمى لكل ما فى الواقع من صور الجمال :

إن روحى الخصب يمجّد صورة واحدة فى كل أبياته وقصائده .

أحياناً يفتنه سناها المضى فيرفعها إلى السماء المزدانة بالنجوم

ويسجد أمامها سجود العابد كما تفعل الملائكة فوق السحاب .

* * *

المهم على كل حال هو التفسير الميتافيزيقى للجمال والعشق (الإيروس) الذى يحس به كل من «تاسو» والأميرة ، فتاسو يشعر من أول لقاء له مع الأميرة بأن جمالها يأسره . ولعله قد شعر قبل ذلك بأن هذا الجمال نموذج عالٍ يفتقر إليه

الواقع ، أو بأن وجودها قد تشكل بالحقيقة والجمال فى صورة يعجز عنها الواقع . ولقد ظل يقنع نفسه بهذه الفكرة الأفلاطونية الخالصة، حتى اعتقد أن المثل الأعلى للوجود قد تحقق فى الأميرة ، بعد أن ضاع من العالم المحيط به ، وأصبحت فى نظره خيالاً من الماضى أو مثلاً من المثل البعيدة عن عالم الواقع والتاريخ !

وليست الأميرة أقل منه إيماناً بهذه المثل العالية أو القيم الأخيرة ، ولا هى أقل منه شوقاً إلى إثراء الحاضر البائس بالجمال المثالى . ولكن إذا كان هذا العشق المشترك هو الذى يربط بينهما برباط من التقدير والإعجاب فإن هناك شيئاً آخر يفرق بينهما تفرقة شائعة . فالأميرة تؤمن بأن مثال الجمال لا يتحقق فى الواقع، أو بأن لحظة تحققه لم تأت بعد . وهى تؤمن بذلك إيمانها بقدر قاس أو قانون صارم لا سبيل إلى الإفلات منه . وطاعتها لهذا القانون تكسب شخصيتها مسحة من الكبرياء الحزينة أو الحزن المتكبر ، وتطبع حياتها وسلوكها بطابع الزهد والصدود الذى عرفت به شخصيات نسائية أخرى فى أعمال جوته ، من أهمها شخصية «أوتيليه» فى روايته «الأنساب المختارة» .

وقد ساعدت على هذه المعرفة الأليمة بتعاسة الواقع وبؤسه تجارب شخصية عديدة مرت بحياة الأميرة . فلقد مرضت فى شبابها مرضاً أشرف بها على الموت ، كما عانت أمها المسكينة من قدر قاس لا يرحم . وطبيعى أن أمثال هذه التجارب الشخصية لا تكفى وحدها لطبع شخصيتها بطابع الاتزان والتعفف والزهد اليأس الذى تتميز به . بل إن هناك من الدلائل ما يشير إلى أن هذا القدر الشخصى لم يكن إلا مقدمة لقدر أعم وأشمل ، وضعت فيه هى و «تاسو» وتعلمت منه أن الزمن ضنين والواقع فقير . وإذا كان «تاسو» لا يزال يحاول أن يطوع هذا الواقع لمثله وأحلامه ويفرض على ذلك الزمن قانوناً لم يأت أوانه ، فقد عرفت هى أن الواقع قد اغترب عن المثال ، والفعل قد انشق على المعنى ، فوفرت على نفسها آلام خيبة الأمل المتكررة التى يعانىها «تاسو» وليس معنى هذا أنها استسلمت لمرارة الزمن، ففقدت الإيمان بكل

قيمة أو معيار . بل معناه على العكس من ذلك، أنها راحت توجه حياتها على هدى قيم موضوعية مترزمة لا مكان فيها للرغبة أو الطموح ، وأنها قد عرفت - والمعرفة مريرة - فأخذت نفسها بفضائل الصبر والاحتمال والحرمان . إن أكثر أحاديثها مع «تاسو» تشهد على ذلك ، فهي تحاول أن تهديه إلى التعقل والاعتزان ، وتحاول أن تريه الواقع البائس على حقيقته ، وهو لا ينفك سادراً فى أحلامه . تأثها فى ضلال حبه . ومع أنها تشعر بغربتها عن العالم المحيط بها . وتحس بوحدتها فى البلاط وعزلتها عن الدوقة «ليونورا سانفيتاله» أقرب الناس إليها . فهي لا تتردد مع ذلك فى الإيمان بالقيم والتقاليد التى تتحكم فى عالم البلاط الذى نشأت وتربت فيه . وإذا كان هذا الإيمان هو الذى يجمع بينها وبين شقيقها الأمير، والوزير «أنطونيو» والدوقة «ليونورا» . فهو كذلك ما يفرق بينها وبينهم . ذلك أنها تعتقد أن القيم والعادات السائدة فى حياة القصر شحيحة فى هذه الفترة المحدودة من الزمن . وتعتقد فى الوقت نفسه أن هناك قيماً أعلى منها لم يئن أو أن تحققها فى عالم الواقع . ولعل هذه العقيدة هى التى تجمع بينها وبين «تاسو» وتجعلها تقف منه موقف الإعجاب الصامت ، والحب الزاهد الحنون . وإذا جاز لنا أن نتحدث عن خطأ «تاسو» أو خطيئته ، فإن فى استطاعتنا أن نقول إنهما يكمنان فى إساءة فهمه للحظة المناسبة ، ومحاولته اليأس للتعويض بين المثال والواقع، والتوحيد بين الروح والفعل ، فى زمن قدر عليه أن يشهد الفراق الحاسم بينهما . إنه يريد أن يثرى عالماً حكم عليه بالفقر ، ويحقق المطلق على أرض الواقع النسبى . ومن هنا فإن المسرحية تفرض ثلاث مراحل زمنية، تتابع واحدة بعد الأخرى على نحو يشبه ما نجده فى تصور أفلاطون

فهناك زمن الوحدة المثالية أو الأسطورية بين عالم مثالى وآخر واقعى ، يتبعه زمن تمت فيه الفرقة بينهما فكان الانقسام إلى جسد وروح ، وفعل وفكر ، وقد يأتى بعدهما زمن ثالث يتحقق فيه الصلح من جديد ، وتتلاشى الثنائية الظالمة فى نعيم الوحدة والسعادة الخالدة

وليست للإنسان يد فى هذا اللحن الزمنى المتتابع ، وليس عليه كذلك إلا أن يعترف ويندمج فيه ، أما أن يقف منه موقف الاعتراض والاحتجاج ، فلن ينتهى منه إلا إلى نهايته ، ولن ينتج عنه سوى الندم أو الجنون أو السقوط فى هاوية المأساة .

* * *

وقد أشار كثير من النقاد فى هذا الصدد إلى أوجه التشابه العديدة بين «تاسو» ومسرحية سوفوكليس «أوديب ملكا» ^(١) وراحوا يفتشون عن عناصر الاتفاق بينهما فى الموضوع والأسلوب والحوار ، ولعل الدافع لهم على ذلك أن «تاسو» من الأعمال الفنية القليلة ، التى تبين لنا كيف يترك الزمن أثره على الإنسان ، فيحدده ويطبعه بطابعه ويصبح قدره ومصيره . ومن هنا كانت للحياة الوجدانية والنفسية ، بما فيها من عذاب الفراق والتذكر والانتظار والأمل والحنين إلى الماضى ، أهمية كبيرة فى هذه المسرحية ، شأنها فى ذلك شأن مسرحيات جوته التى تهتم بعالم الباطن أكثر بكثير من اهتمامها بعالم الظاهر والأحداث الخارجية . ولعل هذا أيضاً هو الذى جعل الشاعر يلجأ فى بناء مسرحيته إلى الشكل الإغريقى القديم ليصب فيه موضوعاً أو مشكلة حديثة ، يتركز الصراع الحقيقى فيها فى باطن الإنسان .

ومع أن «مأساة أوديب» فى صميمها مأساة ميتافيزيقية خالصة ، ومأساة «تاسو» مأساة تاريخية مرتبطة بزمن معين إلا أنهما متشابهتان من حيث الشكل التحليلى الذى يتميز به بناءؤهما الدرامى . فالأمر يدور فى «تاسو» وفى «أوديب» حول الكشف التدريجى عن مشكلة أو مظهر فاسد كامن فى طبيعة البطل نفسه ، تزيده حيرته وتخبطه تعقيداً على تعقيد . ومن ثم كان العذاب الوجدانى فى «تاسو» وفى

(١) كارل رينهارت ، الأعمال والأشكال ، جودسبرج ١٩٤٨ م ، ص ٤٤٤ وما بعدها .

«أوديب» أهم من الفعل ، والمعرفة المريعة التى تتكشف شيئاً ، فشيئاً أخطر بكثير من التطور التاريخى . ولذلك نجد البداية والنهاية فى كليهما أشبه بصورتين متقابلتين . فد «أوديب» فى بداية المأساة هو منقذ الجميع ، وفى نهايتها المنبؤ من الجميع ، و«تاسو» فى بداية المسرحية هو الشاعر الذى يحتفل الجميع بتتويجه ، ولكنه فى نهايتها المطرود الذى حكم عليه بالدمار والانكسار . وإذا كان هناك فرق بينهما فإن أوديب قد حكم عليه قدر ظالم مجهول بالتردى فى أخطاء لا ذنب له فيها ، بينما أخطأ «تاسو» بخياله الجامع وعاطفته المتهورة فى حق الزمن ونظامه ، وحاول أن يفرض الحقيقة الشعرية على الواقع العملى الذى لم يتأهب لها . ولكن البطل هنا وهناك بدأ عظيماً فى مجده وانتهى عظيماً فى انهياره ، وذلك هو جوهر المأساة .

* * *

ماذا نقول عن هذه القصيدة الطويلة الحزينة التى نسميها تاسو؟ أهى دراما أم مأساة ، أهى قديمة أم حديثة ؟ إننا نحار أمام هذا النسيج الرقيق الدقيق الذى لا يكاد يحدث فيه شئ ، ومع ذلك فكأن الضرورة هى التى نسجت خيوطه ، ونعيش فى عالمه الأنيق الجميل ، ومع ذلك يترك فى نفوسنا شيئاً يشبه الفرع الذى تتركه فينا المأسى الإغريقية حسن تشعربنا بقسوة القدر الظالم المجهول . كيف يمكن أن تكشف هذه الحياة المنمقة الزاهية عن هوة من الحزن بلا قرار . وكيف يؤدى كل ما فيها من جمال ونظام وسمو فى الأخلاق والتقاليد إلى تحطيم نفس رقيقة حساسة ؟ أيمكن أن تمرض هذه النفس وتيأس فى عالم يحبها ويرعاها ويدللها ويكاد يؤلفها؟ أم أن هذه الحياة المهذبة الراقية ليست إلا واجهة مصطنعة تخفى العداوة الحقيقية للشاعر الأصيل ، وتكره عالمه المترفع عن عالمها الغارق فى التكلفة والتظاهر والمنافع والأغراض؟ ثم من المذنب فى مأساة شاعرنا؟ أهم سكان البلاط الذين لا ندري إن كانوا أصدقاءه أو أعداءه ولا نعرف إن كانوا يضمرون له الشر أو الخير؟! أهم جماعة

يتعاون نكر فرد فيها على إنماء مريضته أم يتأمر على عبقريته فيستغلها لمصلحته ، ويطش بها إذا وجد أنها لم تعد تحقق أهدافه ؟ أم يكون الشاعر نفسه هو المذنب ، لأنه تجاوز الحد الذى كان عليه أن يلتزم به ، وراح يغوص فى وهم خداع جعله يقضى على سعادته ويلقى بالمسئولية على المحيطين به ؟ ألا نحطم بذلك صورة الشاعر الذى يحمل رسالة فريدة ويعيش - وهذا حقه - فى عالم لا يصح أن نتدخل فيه أو نحاول تشكيكه على هوانا ؟ ألا نسيء إلى الشعر نفسه حين نصور «تاسو» رجلاً مريضاً يسوقه الفشل النفسى خطوة فخطوة إلى الدمار ؟ إن الأمر فى «تاسو» كما قلنا يتعلق بالكشف لا بالتطور ، وبالمعرفة لا بالحدث ، وبالعذاب لا بالفعل . ولكن ما الذى يتكشف هنا ويعرف ويعانى ؟ لو دققنا النظر فى النص الشعرى الذى بين أيدينا لتبين لنا أن الأمر فيه ليس أمر صراع درامى عادى ، بين نفس عاطفية حساسة وعالم الدسائس والمؤامرات المحيط بها ، بل إن موضوع المسرحية هو العذاب الذى يكابده الشاعر ، والحديث الذى يدور بينه وبين نفسه المنطوية ، والتناقض الخفى الذى كان يخفيه فى صدره فساعد الوسط المحيط به ، بإرادته أو بغير إرادته ، على كشف الغطاء عنه . وبذلك تكون «تاسو» مأساة حديث ذاتى (مونولوج) ، أو لحناً فاجعاً وحيداً لا تقوم فيه بقية الشخصيات إلا بدور الأصوات المصاحبة، التى تغطى عليه أحياناً وتبرزه أحياناً أخرى .

إنها لا تمثل شخصيات تصطدم بالبطل أو تقف معه ، كما هو الحال فى الفعل الدرامى المعتاد وإنما هى أشكال وصور تنعكس عليها نفسه وتشدها إلى وجدانها الوحيد وتفسرها تفسيراً شعرياً خاصاً بها ، ولا يمنع هذا من أن تحتفظ بشخصيتها المستقلة ، وكيانها الواقعى الذى يعجز الشاعر عن فهمه ، ويرى نفسه مستبعداً منه . وليس من المهم أن تكون هذه الشخصيات معه أو عليه - فالواقع أنها جميعاً تشجعه وتسترضيه وتخطب وده - بل المهم أن لكل منها وجوده الواقعى الذى يختلف عن وجوده الشعرى الحالم ، وأن هذه الحقيقة وحدها هى التى تدمر حياته وتكشف له عن

مأساة موقفه ، وذلك بمجرد أن يتضح له أن الموهبة لا بد أن تصطدم مع الحياة وهكذا لا تقول المسرحية كلها أكثر من أن الوجود الشعري وجود مأساوى . لا يقتصر ذلك على مدينة «فرارا» وحدها ، بل كذلك كان الأمر ، وكذلك سيكون فى كل مكان وزمان . ويزيد من قسوة هذا الإحساس أو من مرارة هذه المعرفة أن شاعرنا يعيش فى وسط مدنى مهذب راق - ولقد أوهم نفسه بأنه وجد فى هذا الوسط الحالم الأنيق (على الأقل من الظاهر) ما يستجيب لصوته الشعري الباطن . ولكن المأساة كلها لم تصبح مأساة إلا لأنها تكشف النقاب شيئاً فشيئاً عن هذا الوهم ، وتبين أن الذوق والتمدن لا يكفيان لإنقاذ الشاعر الذى كتب عليه أن يحيا ويموت وهو استثناء عظيم تلك هى المعرفة التراجمية التى يتعلمها «تاسو» وتعلمها منه . وذلك هو سبب هذا الحزن الهادئ الفاجع الذى تملؤنا به هذه المسرحية ، على الرغم من أننا نعلم أن الشخصيات كلها - بما فى ذلك الوزير «أنطونيو» إذا أحسنا فهمه - تتضافر على حمايته وتتنافس فى رعايته ومكافأته والعطف عليه . ولكنها لا تعلم أنها بذلك تزيد حياته تهديداً ، وأنها بوجودها الواقعى وعالمها غير الشعري تزيده إحساساً بوحده فى عالمه الخيالى المثالى غير المحدود .

* * *

ما قيمة الشاعر بالنسبة لذلك العالم وما دوره فيه ؟ إن المشهد الأول من المسرحية يرمز للإجابة عن هذا السؤال . فتاسو يظهر حاملاً فى يده ملحمة الشعرية التى فرغ من كتابتها ، وإن لم يفرغ بعد من التشكك فيها والتفكير فى إكمالها ! وتتقدم الأميرة لتضع على رأسه إكليلاً من الغار، كان المفروض أن يزين تمثال الشاعر الرومانى الأكبر فرجيل . فإذا تأملنا هذا المشهد من ناحية البلاط وجدناه مظاهرة للتفاخر والإعلان ، ومرآة تعكس زينته وأبهته . إن الأمير «ألفونس» محتاج إلى موهبة الشاعر لأنه سيظل بدونها فى صف البرابرة المتوحشين ، ولأنها تزيد أمجاده الواقعية

أمجاداً أخرى فى عالم الشعر والخيال . إنه يستطيع الآن أن يقول للناس : انظروا !
إن عندى، إلى جانب القصور والجيوش والآثار القديمة والخدم والحشم، شعراء وكتّاباً
وفنانين ! والدوقة «ليونورا سانفيتاله» محتاجة إليه، لأنها تريد أن ترى نفسها منعكسة
على مرآة روحه الجميلة، ولأنها - وهى الأنانية المغرورة بفقنة الأئوثة - تستطيع أن
تضيفه إلى الزوج والأطفال وتجرجره خلفها كأنه ذيل رداؤها الأنيق ... إنها سيدة
المجتمع الرائعة التى يهملها أن تضيف إلى ثروتها شاعراً موهوباً مسكيناً ! وإذا كانت
تلجأ إلى المؤامرة التى لا ضرر منها ، فلأنها تريد أن تستأثر به لنفسها ، وتظهر
مهارتها فى إتقان ألعاب القصور . أما الأميرة فهى فى حاجة إليه، لأن حياتها التى
عانت من المرض والعذاب محتاجة لمن يرد إليها الحياة، ولأنها - وهى تلميذة أفلاطون
- تعلم أن الشاعر وحده هو الذى يستطيع أن يسمو بها إلى عالم التجانس والصفاء
والنقاء . فالشعر بالنسبة إليها هو الوسيلة الوحيدة التى بقيت أمامها لاحتمال الحياة
المسرفة فى المادية والغلظة والجهامة . إن الأميرة لا تتظاهر كغيرها ، وهى أبسط
نفساً وأرق حساً من أن تهين الشاعر بالعطف عليه . ذلك لأن أهم ما يميزها هو
البساطة والسمو والكبرياء ، حتى لتكاد كل كلمة تقولها وكل إشارة تصدر عنها أن
تنطق بالترفع والابتعاد . إنها أفلاطونية تفكر تفكير الفيلسوف العظيم، وتشتاق إلى
الجوهر الباقي وراء المحسوس المتغير ، وموقفها من كل ما هو مادي موقف الترفع
والتعفف ، وحديثها إلى «تاسو» حديث روح إلى روح ، لا حديث امرأة إلى رجل . فإذا
ظن الشاعر فى عنفوان عاطفته الملتهبة أنها تبادل له حباً بحب ، أسرع تزجره عنها
فى رفق تارة، وفى عنف تارة أخرى . ذلك لأنه لم يكن بالنسبة إليها ولن يكون أكثر من
واسطة إلى «العهد الذهبى» الذى مضى، ولن يعيده إلا الأخيار والطيبون . صحيح
أنه «وسيلة» إلى هدفها ، ولكن ما أعظم الفرق بين هذا الهدف وبين أغراض
المحيطين بها فى البلاط .!

إذا كان هذا هو موقف الجميع من مشهد التتويج، فما أشد ما يختلف موقف «تاسو» منه ! فليس الخيال والشعر، بالنسبة إليه، تجميلاً للحياة أو زخرفة لها ، بل إن الحياة عنده هي الخيال ، والشعر هو الوجود . ولذلك فإن التتويج يفقد عنده قيمته المؤقتة المحدودة ، وينقله إلى عالم غير واقعي ، إلى وطن النشوة الخلاقة والتجربة الشعرية الذي يوجد في كل مكان، ولا يوجد في أى مكان . ولذلك فهو يدهش الجميع بتردده عن قبول الإكليل ، ويغضبهم برعبه المفاجئ الذي يجعله يقول :

دعوني أتردد ، فلسست أدري

كيف يمكنني أن أعيش بعد هذه اللحظة

وتنقلب لحظة التكريم إلى شقاء لا حد له . فهو يحس، كأن الإكليل يحرق شعره ، ولهيب الحمى يعصف بدمه . ويشعر أن التاج الذي لم يكد يستقر على جبهته، قد انتقل به إلى جنة الخالدين ، وطار به إلى مملكة قديمة مسحورة يتحد فيها البطل والشاعر ، وتتعانق الفروسية والفن . ولكنه يشعر كذلك شعوراً خفياً بأنه قد صار غريباً عن كل الوجوه التي تنظر فيه أو تبتسم له ، وبأن «فرارا» ليست هي وطنه الذي كان يحلم به ، بل إنه ككل الشعراء لا وطن له ، حكم عليه بمحض وجوده كشاعر أن يعيش مهدداً ، ضائعاً ، يتحدث فلا يفهم ، ويقول فلا يسمع .

ويتضح الدور الذي يمكن أن يقوم به الفن عامة، والشعر بوجه خاص في مثل هذا المجتمع، عندما يظهر الوزير «أنطوني» في المشهد الرابع الذي يلي المشهد السابق .

فالأضواء تسلط على الجانبين السياسى والعملى فى حياة البلاط ، بحيث لا يعود هناك مجال للشك فى أن العلم والفن والشعر لا وزن لها، إلا إذا كانت وسيلة لخدمة السياسة وزينة على صدور الحكام . وإذا كان «أنطوني» - وهو الوزير الناجح الذى ابتعد عن البلاط فترة من الزمن فى مهمة ناجحة - يُعبر عن غضبه وسخطه المكتوم على «تاسو» ، فليس ذلك لأنه يشعر بأنه غريمه الذى أوشك أن يحتل مكانه فى البلاط

أو فى قلوب النساء ، بل لأنه يشعر كذلك بفطرته أن عالم «تاسو» غير الواقعى يهدد عالمه الواقعى ، وأن الخيال والشعر خطر عليه أى خطر . إنه يدافع بغريزته عن حياته ، ويريد أن يحمى نفسه من عالم الشعراء والموهوبين، الذى يحس أنه غريب فيه . وليس فى الأمر شئ من سوء النية أو الحقد أو الاعتداء ، بل إنه تصرف طبيعى، تمليه ضرورة عمله وحياته . ولذلك فلا يصح أن نستكثر عليه موقفه النبيل فى آخر المسرحية حين يرى «تاسو» مشرفاً على الهاوية، فيمد له يداً مخلصه عاطفة .

أما «تاسو» فهو يتصرف كذلك بما يتفق مع طبيعته فينظر إلى عالم السياسة المحيط به بمنظار الحلم والخيال .

إنه يحاول تحت إلحاح الأميرة أن يلتقى بـ «أنطونيو» ، ويمد يده إليه فى حماس لإيمانه بأن البطل والشاعر يمكن أن يلتقيا ويتحدا ، وهو شئ لا يمكن أن يحدث إلا فى العالم الذهبى المسحور الذى يحيا فيه . ويفرعه تردد أنطونيو وتحفظه . ويسرع إلى التشكك والتوهم . وتزداد شكوكه وأوهامه يوماً بعد يوم، حتى تنتهى به إلى الكارثة المحتومة .

ولو أنه قنع بعالمه أو سلّم باختلافه عن العوالم الأخرى ، لما فقد ثقته فى نفسه ولا كانت هناك ضرورة إلى حزنه الجارف المؤثر الذى لا عزاء فيه .

فما أقسى أن يرى نفسه ملكاً فى مملكة الخيال ، ورقيقاً للأبطال والشعراء الخالدين ، ثم يرى نفسه مع سذلك يسير فى دنيا الواقع والمنافع كالشحاذ اليتيم !

ولو استطاع هذا الخيالى المسكين أن يقفز القفزة المناسبة من عالمه المسحور إلى عالم الواقع، لانتشل نفسه من مهاوى العدم وحقق السعادة فى الدارين ' ولكن هل كان يستحق منا عندئذ أن نسميه شاعراً ، أم كان يصبح انتهازياً ممن تمتلئ بهم حياتنا الفنية اليوم ؟!

إن الخلاف بين «تاسو» و«أنطونيو» خلاف أساسى بين الشاعر ورجل الحكم ، تصطدم فيه العاطفة الجارفة بالعقل الناقد المتزن . ويصل الشقاق بينهما إلى حد تبادل الألفاظ الجارحة ، فيجرد «تاسو» سيفه ويطالب «أنطونيو» بالنزال ، ويتدخل الأمير بينهما ، ويعاقب «تاسو» بالحبس الانفرادى فى غرفته .

هنا نستطيع أن نقول إن شيئاً قد حدث ، وهو أمر نادر فى هذه المسرحية ! فهذا الحادث الضئيل كان وحده كافياً للإلقاء بـ «تاسو» فى هاوية الحزن والوحدة التى لا مخرج منها . إنه لم يرتكب خطأ فى حق النظام الأخلاقى ، بل اصطدم بالقواعد الشكلية . و«الشكل» فى مثل هذه المجتمعات هو كل شىء . ولذلك فالأمير لا يحاول أن يعرف المخطئ من المصيب . وإذا عاقب فعقابه شكلى . لقد عفا بالفعل عن المذنب ، وترك له أن يحرس نفسه بنفسه ، أعنى أن يهرب من هذا السجن الشكلى إذا شاء . وقد كان من الممكن أن تمر العاصفة لو أن «تاسو» خضع لإرادة هذا النظام الشكلى . ولكنه لا يقدر على ذلك ولا يمكن أن يقدر عليه . ذلك لأن وجوده كله كشاعر إنما هو تمرد على الشكل . فالشكل قالب مصطنع نفرضه على الحياة ، والشاعر يعيش على الخيال الذى يفجر القوالب ويكسر الحواجز والحدود . ولو اعترف بها لأنكر نفسه . فهو الممسوس الذى تسيطر عليه قوى أقوى منه . ولذلك فليس فى قدرته أن يسلم بالحدود التى تفصل بين إرادة الذات وبين الالتزامات الواجبة نحو المجتمع .

لقد عميت عينه عن رؤية الواقع ، لأن كل ما نسميه بالواقع، قد تحولَ عنده إلى خيال . إنه كالممثل على المسرح ، يسمع الكلمة التى يبدأ عندها فى إلقاء دوره ولكنه لا يكاد يسمع ما يقوله سواه . ولذلك يصعب عليه أن يخرج من نفسه ، أو يعرف الموقف المحيط به على حقيقته . ولو قارنا بينه وبين «أنطونيو»، لوجدنا الأخير على حق دائماً ، فهو يملك كل ما يفتقر إليه «تاسو» من إحساس صائب بالواقع ، وفهم لما يليق فى المجتمع وما لا يليق .

غير أنه يفتقر إلى مملكة الشعر التي أغلقت بابها في وجهه كما تعوزه القدرة على الإبداع والحماس والانطلاق . ومع ذلك فعلينا أن ننصفه فنقول : إنه يدرك ما سميناه من قبل تنافر الموهبة مع الحياة ، ويحاول أن يكفكف من غلواء «تاسو» ويقاوم طرفه ويعيده من جديد إلى أرض الواقع والمجتمع .

غير أن محاولاته النبيلة تبوء بالفشل ، لأنها موجهة إلى تاسو « الإنسان » إلى تاسو «الشاعر» ، ولأنها تطبق معياراً يصلح للقعدة لا للاستثناء ، وللكل لا للفرد . ولو استمع «تاسو» إلى نصحه ، لما كان هو «تاسو» ولا كان من حقنا أن نتحدث عن مأساته . فإذا كانت قوة «أنطوني» في خضوعه للنظام والتزامه بالأصول والحدود ؛ فإن قوة «تاسو» وضعفه في آن واحد في تمرده على كل المقاييس والأشكال ، وخضوعه لضرورة الخلق والإبداع .

وإذن فقد ظل صادقاً مع طبيعته كشاعر وإنسان فريد ، ولو أحنى رأسه ، لأصبح واحداً من مئات الشعراء الذين ازدحم بهم الأدب العالمي (والأدب العربي بوجه خاص!) وعاشوا وماتوا كالشحاذين على صدقات الأمراء والسلطين ...!

إن من أعز أشواق الإنسانية أن يحيا الشاعر والفنان مع المجتمع في وئام . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الشاعر والفنان لا يستطيع إلا أن يكون شاعراً وفناناً ، أعنى أن يعيش في صراع دائم مع القيود والحدود ، ويحيا في عالم خاص به يبعده بوجه من الوجوه عن المجتمع ويبعد المجتمع عنه .

فكل من جعل من الإليزيوم (جنة الخالدين) وطنه ومسكنه ، لا بد له أن يحيا غريباً على الأرض مثل «تاسو» . ومع أن بلاط «فرار» قد قدم لشاعرنا أقصى ما يقدم من واجبات الضيافة والرعاية ، فقد أوضح مع ذلك بصورة مفزعة أن التفاهم بين الشاعر والمجتمع يقوم دائماً على سوء تفاهم ضخم . لذلك تحسن المجتمعات صنفاً ، إذا تركت للشعراء حرية الرفض والاحتجاج وكفلت لهم حق التفرغ والاعتزال . ذلك لأنهم لا يحتجون عليها إلا حباً فيها ، ولا ينزلون عنها إلا ليزدادوا قرباً منها ومعرفة

بها . كان هذا هو حق القواد والرواد دائماً ، ومن أحق بالقيادة والريادة من الفنانين والشعراء ؟!

لا بد أن يكون لدى الشاعر أو الفنان ما يقوله . ولعل «جوته» . لم يرد بمسرحيته «تاسو» أكثر من أن يقول إن وجود الشاعر عذاب . لقد صور فيها حالة نفس مريضة . ولكنه لم يقصد تصوير المرض النفسى لذاته ، بل ليوضح من خلاله طبيعة الإحساس الشعري بالحياة ، وهو إحساس يستمد قوته من ضعفه وتعرضه الدائم للخطر والدمار . فالشعر هنا والفن عمومًا ليس هو الحالة السوية . بل هو شئ غريب ، مضيق ومريض . ولا شك أن هذه نظرة رومانتيكية أو عاطفية . ولا شك أيضاً أنها أثرت فى تصور الرومانتيكية للشاعر والفنان كما عبّرت فى السنوات الأخيرة عن نفسها أوضح تعبير فى أعمال كاتب كبير، مثل «توماس مان» . وطبعاً أن يكون «جوته» قد صور فى مسرحيته جانباً من حياته وألامه الشخصية ، وإن لم يمنع هذا من أن تنفرد الصورة بحقيقتها المستقلة . لقد سبق أن فعل ذلك فى رواية شبابه «فرتر» ، فكانت تسجيلاً لعذابه وخلاصاً من هذا العذاب فى وقت واحد . وهو قد فعل الشئ نفسه فى «تاسو» ، فتجاوز همومه إلى هموم الشعراء بوجه عام ، وبين أن الشعرية فى صميمها نوع من العذاب الذى يكابده الشاعر فى العالم وفى ذاته ، ينشأ عن إفراط فى الخيال وتفريط فى الواقع . فمن طبيعة المخيلة أن تعلو وتتجاوز باستمرار ، وتتحرك حركة جارفة متدفقة تتخطى «الهنا» و «الآن» ، ولا تعترف إلا بالماضى أو المستقبل . وقد أورد «إكرمان» حديثاً له مع «جوته» فى اليوم الثامن من شهر مارس سنة ١٨٣١م ، أى قبل وفاته بسنة واحدة ، يمكن أن ينطبق على «تاسو» بصورة مباشرة . فقد قال له «جوته» : « إنه لا شك أن فى الشعر وبالأخص فى غير الشعورى منه، شيئاً شيطانياً لا يدركه الفهم ولا العقل ، ويؤثر من أجل ذلك تأثيراً لا يمكن تصور مداه » . ولا بد أن «جوته» قد أراد أن يحد من خطر رومانتيكى كان يتهدهده ويغريه بالانسياق وراء الخيال الجامح والبعد عن الأرض ونظمها

وأشكالها . ولا بد أنه وصل بذلك إلى الهدوء والاتزان الذى تميّز به فى حياته وأعماله .

ولكن هل وصل «تاسو» نفسه إلى شىء من هذا الهدوء والاتزان؟ هل وجد فى النهاية بعض العزاء عن حزنه المنكسر الأليم ؟ وهل كان فى قدرته على التعبير عن هذا الحزن أو فى شاعريته نفسها، ما يعوضه عن فشله وهوانه فى العمل والحياة؟

لا بد أنه أحس بما يشبه العزاء الميتافيزيقى عن تحطم وجوده التعيس، حين قال عن نفسه فى نغمة لا تخلو من الفخر والكبرياء: إن الله قد أعطاه القدرة على التعبير عن عذابه، حين حرم غيره من هذه القدرة وتركه أخرس من الألم :

لم يبق إلا شىء واحد : الدموع التى أعطتها لنا الطبيعة

وصرخة الألم التى يطلقها الإنسان

حين يعجز عن الاحتمال .

وأنا الذى احتفظت بهذه الهدية السامية

تركت لى فى الألم اللحن والخطاب

لأشكو همومى كلها فى نشيدى :

وإذا ما أخرس الإنسان عذابه

وهبنى الرب أن أعبر عن عذابى .

ما أجمل هذه النعمة التى وهبتها له السماء ، وما أعظم المعرفة التى تفيض - على مرارتها - بالحكمة والصفاء ، والتضحية التى قدم بها حياته قرباناً للشعر والشعراء !

* * *

ملحوظة

بقيت كلمة، أحبُّ أن أسوقها عن هذه الترجمة . فقد رجعت فيها إلى النص المحقق الذى نشر فى طبعة هامبورج المشهورة لأعمال «جوته» ، بإشراف الأستاذ «يوسف كونس» Joiseph Kunz ، كما استفدت فى كتابة المقدمة من تعليقه على المسرحية ومن الفصل الذى كتبه عنها العلامة «بنوفون فيزه» Benno Von Wiese فى كتابه التراجيديا الألمانية من لسينج إلى هيل . وقد رجعت كذلك إلى الترجمة الفرنسية التى قام بها «هنرى توما» "H. Thomas" ونشرت مع بقية مسرحيات «جوته» فى مجموعة البلياد المشهورة، واستفدت منها كثيراً فى توضيح ما غمض على من النص الأصيل . ولست أدري إن كانت هذه الترجمة قد استطاعت أن تنقل بعض ما فى الأصل الشعرى من رقة وجمال لا يوصف، فالأفضل أن أترك الحكم فى ذلك للقراء !

عبد الغفار مكاوى

شَخْصِيَّاتُ الْمَسْرُحِيَّةِ

ألفونس الثاني : أمير فرارا Alfons der Zweite, Herzog von Ferrara.

ليونورا فون استه : شقيقة الأمير Leonore von Este, Schwester des Herzogs.

ليونورا سانفيتاله : دوقة سكانديانو Leonore Sanvitale, Gräfin von Seandiano.

توركاتو تاسو Torquato Tasso.

أنطونيو مونتيكاتينو : وزير Antonio. Montecatino, Staatssekretär.

« المشهد في بلريجواردو، أحد قصور الترف »

الفصل الأول

المنظر الأول

« فناء حديقة تزينه تماثيل نصفية
لشعراء الملاحم » .
« يظهر فى مقدمة المسرح على اليمين
تمثال فرجيل ، وعلى اليسار تمثال
أريوست » .

المشهد الأول

« الأميرة - ليونورا »

الأميرة : ليونورا ، أنت تنظرين إلى وتبتسمين
ثم تنظرين إلى نفسك وتبتسمين من جديد .
ماذا بك ؟ دعى صديقتك تعرف الخبو !
التفكير يبدو عليك ، ومع هذا يبدو عليك السرور
ليونورا : أجل يا أميرتى ، يسرنى أن أرانا هنا
فى زينة أهل الريف .

نبذ كالراعايات السعيدات

ويشغلنا ما يشغل السعداء .

نحن نعقد الأكاليل . هذا الذى يزدان بالزهور^(١)

يكبر شيئاً فشيئاً فى يدي ،

وأنت بفكرك السامى وقلبك الكبير

قد اخترت الغار الرقيق النحيل .

الأميرة : الأغصان التى جدلتها بالفكر والخيال ،

سرعان ما وجدت رأساً بها جديراً :

إننى أضعها ممتنة على رأس فرجيل .

(تضع الإكليل على رأس فرجيل)

ليونورا : وما أنا أيضاً أثبت إكليلى المكتمل البهيج

على جبهة المعلم لودفيج العالية^(٢) .

(١) وجد جوته مشهد التتويج مصوراً على غلاف الترجمة الألمانية للمحمة «تاسو» الشعرية «أورشليم المحررة»، التى كان يعرفها منذ صباه

(٢) المقصود به هو الشاعر الإيطالى لودفيكو أربوستو (١٤٧٤ - ١٥٣٣ م) ، وكان أبوه موظفاً فى بلاط أمير « فرارا » . درس القانون ثم عدل عنه إلى دراسة الحضارة القديمة وفن الشعر، وبدأ يكتب أشعاراً باللغة اللاتينية . اضطر بعد وفاة والده (١٥٠٠) إلى رعاية شئون أسرته ، فالتحق بخدمة الكاردينال « أبوليتو دسته » ، الذى أرهقه بالعمل مما جعله يلتحق ببلاط « ألفونسو دسته » ، حيث قضى بقية حياته هناك . ألف مسرحيات هزلية على نمط مسرحيات « بلاوتوس وتيرنس » ، تعرض على مسرح البلاط ، كما وضع عدداً كبيراً من القصائد الانتقادية الساخرة، التى تسمى بالساتير . ينتقد فيها عصره وبيئته . ولكنه عرف فى تاريخ الأدب بملحمته الشعرية الكبرى «أورلاندو الغاضب» Orlando Furioso ، التى ألفها فى سنة ١٥٣٢م فى ستة وأربعين شهيداً وتمد أكمل الأعمال المعبرة عن عصر النهضة .

(تضع الإكليل على رأس أريوست)

هذا الذى لن تذبل دعاياته

ليأخذ حظه من الربيع الجديد .

الأميرة : شاعت مروءة شقيقى أن يرسلنا

فى هذه الأيام إلى الريف .

نستطيع أن نخلد إلى أنفسنا ونقضى الساعات

ونحن نحلم فى زمان الشعراء الذهبى .

أحب بلريجوار دو ، فكم من يوم بهيج .

من أيام الشباب عشته هنا فى حبور ،

وهذه الأوراق الخضراء ، وهذه الشمس

تبعث فى وجدانى الإحساس بالزمن البعيد .

ليونورا : أجل . إن عالماً جديداً يحيط بنا !

ظلال هذه الأشجار المخضرة أبداً ،

تغمر القلب بالسرور .

وخرير الأمواج يسعد النفس من جديد .

العصون الشابة تهددها ريح الصباح .

والزهور تتطلع إلينا من أحواض الزرع

وفى عيونها الطفلية نظرة ودود .

والبستانى يرفع مطمئناً سقف البيت الزجاجى

الذى غرس فيه الليمون والبرتقال .

السماء الزرقاء تمتد من فوقنا ،

وعلى مدى الأفق يذوب الثلج .

على قمم الجبال البعيدة .

ويرسل أنفاس العبير .

الأميرة : كم كنت أود أن أرحب بالربيع

لو لم يسلب منى صديقتى .

ليونورا : لا تذكرينى ، فى هذه الساعات الحسان

بأننى ، يا أميرتى ، سأرحل عن قريب .

الأميرة : كل ما قد تهجرينه ، سوف تجدينه مضاعفاً

فى تلك المدينة الكبيرة من جديد .

ليونورا : الواجب يدعونى ، والحب ينادينى

للزواج الذى طال حرمانه .

سأحضر له ولده ، الذى أسرع نموه

وزكت تربيته فى هذا العام

وأشاركه فرحة الآباء .

عظيمة هى فلورنسا ورائعة .

غير أن كنوزها المتراكمة

لا تعدل قيمتها نفائس «فرارا» .

إن الشعب هو الذى جعل من تلك المدينة مدينة ،
أما «فرارا» ، فبفضل أمرائها أصبحت عظيمة^(١) .

الأميرة : بل الفضل للطيبين

الذين أقبلوا إلى هنا بمحض المصادفة
وجمع الحظ بيننا وبينهم .

ليونورا : من اليسير على المصادفة أن تفرق ما جمعت .

أما الإنسان النبيل فيجذب النبلاء إليه
ويعرف كيف يختفظ بهم ، مثلما تفعلون .
من حول شقيقك ومن حولك

تتألف قلوب جديدة بكما

وأنتما جديران بأبائكما العظام .

هنا توقدت فى بهجة .

شعلة العلم وحرية الفكر الجميلة^(٢) ،

بينما كان التوحش يلقي ظله الكثيف

على العالم المحيط بكم .

كنت لا أزال طفلة ، عندما رنت أسماء هرقل

وهيبوليت فى أذنى .

(١) إشارة إلى أمجاد عائلة « استه » ، فقد استضاف جد الأمير الحاكم لمدينة « فرارا » ، وهو هرقل فون استه ، الشاعر بوياردو فى قصره ، كما استضاف ابنه هيبوليت الشاعر أريوستو

(٢) تعطى الأبيات التالية صورة معبرة عن الحياة العقلية والروحية فى عصر النهضة الإيطالية .

كان أبى يكثر من الثناء
على « فرارا » ثناءه على روما وفلورنسه !
طالما اشتقت إليها ، وها أنذا الآن أعيش فيها .
هنا حل بتراركا ضيفا ، وهنا لقي الرعاية ،
وأريوست عثر هنا على نماذج .
وما من اسم عظيم ذكرته روما
إلا وحل ضيفاً على هذا البيت .
وإنها لمزية أن تستضيف العبقري :
إن أنت قدمت له هدية ،
رد لك الهدية بأحسن منها .
المكان الذى يحل فيه إنسان طيب
تحل فيه البركة ؛ ولا تزال كلمته وعمله
ترددان فى سمع الحفيد بعد مائة عام .
الأميرة : هذا لو كان للحفيد مثل ما لك من إحساس حى .
إنى كثيراً ما أغبطك على هذه النعمة .
ليونورا : التى تستمعين بها فى هدوء وصفاء
متعة لا يعرفها إلا القليلون
إن قلبى ليدفعنى إلى الإفصاح
عما أحس به ملء الفؤاد .
أنت تحسين به أفضل وأعمق وتصمتين .
أنت لا يبهرك مظهر اللحظة العابرة .

ولا الذكاء يخلبك عبثاً يحاول التملق
أن يلتصق بأذنيك .
إن فكرك يظل راسخاً ، وذوقك سليماً
وحكمك صائباً ، وحظك من العظمة دائماً عظيماً
فأنت تعرفينها كما تعرفين نفسك .

الأميرة : أولى بك ألا تخلعي على هذا الملق الرفيع
ثوب الصداقة الحميمة

ليونورا : بل الصداقة عادلة ، فهي وحدها
التي تستطيع أن تقدرك حق قدرك .
دعيني كذلك أذكر للحظ والمناسبة .
دورهما في تكوين روحك ،
إنك تملكينها حقاً ، وإنك أنت في النهاية هذه الروح ،
والدنيا كلها تكرمك أنت وشقيقتك^(١)
وتعلي قدركما فوق عظيمات النساء في زمانكما .

الأميرة : كل هذا ، يا ليونورا ، لا يؤثر على كثيراً ،
كلما تذكرت أننا لا نساوي إلا القليل ،
وأن هذا القليل ندين به لغيرنا .
إن معرفتي باللغات القديمة ، وبأفضل ما خلفه

(١) إشارة إلى لوكرتسيا شقيقة الأميرة ، وقد كانت زوجة لولى عهد أوربينو ، التي كان عقمها سبب
تعاستها « قارن في ذلك المشهد الثاني من الفصل الثالث »

لنا العالم القديم شئء أدين به لأمى ،
ومع ذلك فلم تكن إحدى ابنتيها لتدانيها
فى علمها ولا فى حكمها السليم ،
ولو حاولت إحدانا أن تقارن نفسها بها ،
لكانت لوكرسيا بذلك أولى منى .
كذلك أستطيع أن أؤكد لك ،
أننى ما نظرت يوماً إلى ما وهبتنى الطبيعة أو أولانيه الحظ
على أنه ملك لى ، أو أننى جديرة به .
إن مما يسعد نفسى ، حين أسمع الأذكىاء يتناقشون :
أن أتمكن من فهمهم وتتبع ما يريدون ،
قد يكون حكماً على رجل من رجال العصر القديم ،
أو على قيمة أعماله ،
أو قد يدور الحديث عن علم نمته التجربة ،
فنفع الإنسان وارتفع به فى أن ،
فى أى وجهة دار حديث هؤلاء النبلاء
وجدتنى ألتبعهم ، لأننى أحب أن أتابع الحديث .
أحب أن أشهد مناظرات الحكماء ،
وأرى كيف يعبث فى رقة بشفاه الخطباء
كلامهم عن القوى الصديقة أو القوى المخيفة
التي تحرك صدر الإنسان .
وأحب أن أرى كيف تصبح شهوة الأمراء

إلى الحكم والتوسع فى الممتلكات

موضوعاً يتناوله المفكرون ،

وكيف تستطيع الفطنة اللطيفة

التي يتعهد بها اللبيب بالرعاية الدقيقة

أن تعلمنا بدلاً من أن تؤذينا .

ليونورا : وبعد أن تنتهى مثل هذه الأحاديث الجادة ،

يستريح السمع والوجدان

لتذوق قوافى الشاعر ،

الذى يسكب أحب المشاعر،

فى النفس بأنغام عذاب .

إن روحك العالية تحيط بمملكة شاسعة ،

أما أنا فأؤثر أن أقيم

فى جزيرة الشعر التى تنمو فيها أشجار الغار .

الأميرة : لقد أكدوا لى أن شجرة المر^(١)

هى التى تؤثر أن تنمو فى هذا البلد الجميل

أكثر من غيرها من الأشجار .

وإذا كانت ربات الفن والجمال كثيرات العدد،

فيندر أن يبحث الإنسان بينهن عن صاحبة ورفيقة ،

لأن لقاء الشاعر أحب إلى نفسه .

(١) يُقال : إنها الشجرة المقدسة عند إلهة الحب «فينوس» .

إنه يتجنبنا ، لا بل يبدو كأنه يهرب منا .
ويبحث عن شيء لا نعرفه .
وقد لا يعرفه هو نفسه فى نهاية المطاف .
ما أجمل أن يلقانا عندئذ فى اللحظة المواتية
وأن يتعرف فينا ، والبهجة تغمره ،
على الكنز الذى طالما بحث عنه عبثاً فى العالم البعيد
ليونورا : لا بد لى من قبول دعابتك ،
إنها تصيبنى حقاً ، ولكنها لا تصيبنى فى الصميم
إننى أقدر كل إنسان وأعرف له فضله .
ولست أحس لتاسو بغير العدل والإنصاف .
إن نظرتة لا تكاد تستقر على هذه الأرض ؛
لكن أذنه تسمع ألحان الطبيعة المنسجمة ؛
كل ما يقدمه التاريخ من كنوز ، كل ما تهديه الحياة ،
يتلقاه صدره بالحب والعرفان :
إن وجدانه يجمع كل ما تباعد وتشتت ،
وإحساسه يهب الحياة لما لا حياة فيه .
كثيراً ما يضيف النبل على ما يبدو لنا وضيعاً ،
والشئ الذى نقدره يصبح فى عينيه عدماً وهباءً .
هذه هى الدائرة الساحرة ،
التي يتجول فيها هذا الرجل المدهش .
ويغرينا على التجوال معه فيها

ومشاركته الحياة التى يحياها .
إنه يبدو كأنه يقترب منا ، ومع ذلك يظل عنا بعيداً ؛
ويبدو عليه كأنه يتطلع إلينا ،
ومن يدرى أى أشباح غريبة ،
تتراءى له فى مكاننا .

الأميرة : أراك صورت الشاعر الذى يهيم فى ممالك الأحلام العذبة

فى صورة لطيفة ورقيقة ،
ومع هذا يبدو لى أن الواقع
يجذبه كذلك إلى بقوة وسيطر عليه .
هذه الأغانى الجميلة التى نلقاها ،
معلقة هنا وهناك على الأشجار ،
أشبهه بتفاحات ذهبية ، أو بنجمة المساء .
ألا ترين أنها الثمار العذبة لحب حقيقى ؟
ليونورا : أنا أيضاً أبتهج بهذه الصفحات الحسان .
إن روحه الخصبية تمجد صورة واحدة
فى كل أبياته وقصائده .

أحياناً يفتنه سناها المضىء
فيرفعها إلى السماء المزدانة بالنجوم ،
ويسجد أمامها سجود العابد
كما تفعل الملائكة فوق السحاب ،
أو يسترق الخطأ ، ليفتش عنها فى المروج الناعسة ،

ويعقد لها تاجاً من كل زهرة تصادفه.
فإذا ابتعدت المعبودة،
راح يبارك الدرب الذى وطئته قدمها الجميلة
إنه يتخفى كالبلبل بين أغصان الأيك
ليشدو من قلب موجع
ويملاً المرج والهواء بشكواه العذبة الحنون :
إن أغنيته الساحرة تجذب الأذان ،
وكأبته المسعدة تجبر القلوب على الاستسلام
الأميرة : وإذا أراد أن يسمى محبوبه
فسوف يسميه ليونورا .
ليونورا : إنه اسمك ، كما هو اسمى .
ولقد كان يسيئنى أن يختار اسماً سواه .
يسعدنى أنه يستطيع بهذا المعنى المزدوج
أن يخفى عاطفته نحوك .
كما يرضينى أن يتذكرنى أيضاً
كلما نطق بهذا الاسم العذب .
بعيد عن خاطرى الآن ذلك الحب
الذى يريد أن يسيطر على المحبوب
ويملكه بلا شريك ، وتدفعه الغيرة
لأن يحميه من كل الأنظار .
إذا كان فى ساعات الإلهام السعيد،

ينصرف إلى التأمل فى سمو قدرك
فربما أسعده أن يلتفت
فى بعض الأحيان إلى قدرى الضئيل .
إنه لا يحبنا - واعذرينى أن أقولها لك ! -
بل يجمع ما يحبه من كل الأجواء
ليضعه فى اسم واحد نحمله
ويعبر به عن إحساسه ؛
يخيل إلينا أننا نحب الرجل ،
وما نحب فى الواقع إلا اسمى
ما يمكن أن نصل إليه بالحب .
الأميرة : لقد تعمقت فى هذا العلم يا ليونورا ،
إنك تقولين لى أشياء لا تكاد تلمس إلا أذنى،
ولكنها لا تنفذ أبداً إلى روحى .
ليونورا : أمثلك يا تلميذة أفلاطون لا تفهم^(١)
ما تجرؤ مستجدة على الثرثرة به ؟!
لا بد أننى أخطئ بالغ الخطأ ،

(١) إشارة إلى تأثير أفلاطون فى النهضة الإيطالية ، وبخاصة فى أكاديمية فلورنسة وفى أعقابها أكاديمية «فرارا» ، وكذلك إلى تأثير الفلسفة الأفلاطونية على هذه المسرحية وعلى تفكير جوته بوجه عام . ويستطيع القارئ أن يتبين ذلك فى تردد بعض الألفاظ المعروفة فى محاورات أفلاطون مثل الإيروس (العشق) والجمال والتذكر والإشارة المستمرة إلى عالم المثل (راجع المقدمة) .

ولكن لا ، إننى لا أخطئ تماماً ، وهذا ما أعرفه
جيداً .

إن الحب لم يكن يظهر فى هذه المدرسة النبيلة
فى مظهر الطفل المدلل كدأبه على الدوام :
بل كان الشاب الذى تزوج بسيخة^(٢)
وجلس مع الآلهة يدلى بالرأى والمشورة .

إنه لا يضطرب هنا وهناك
نزقا من قلب إلى قلب ،
ولا يعمه فى ضلاله العذب .
ليتشبث بالشكل والجمال ،
ولا يكفر عن نشوته العاجلة .
بالسخط والاشمئزاز .

الأميرة : ها هو ذا أخى مقبلا !
فلنحاول ألا يفضحنا الحديث
حتى لا يسخر بكلامنا ،
كما سخر من قبل بملبسنا .

(٢) أو النفس فى اللغة اليونانية ، وهى فيما تروى الأساطير زوجة إيروس أو الحب .

المشهد الثانى

(السابقون - ألفونس)

ألفونس : أبحث عن تاسو ، الذى لا أعثر عليه فى أى مكان ،

وحتى هنا لا أجده معكما

هل تستطيعان أن تنبئا بخبر عنه ؟

الأميرة : بالأمس رأيته لحظة ، واليوم لم أره .

ألفونس : إنه يقترب الخطأ القديم ، إذ يسعى إلى الوحدة،

لا إلى صحبة الناس .

لئن غفرت له فراره من زحام البشر

وإيثاره الإخلاق إلى روحه ، يسامرها فى حرية وهذوء،

فلن أستطيع أن أعفر له

أنه يبتعد بنفسه عن دائرة الأصدقاء .

ليونورا : أيها الأمير . إن لم أكن مخطئة

فسرعان ما تحول لومك إلى ثناء .

لقد رأيته اليوم من بعيد :

كان يحمل فى يده كتاباً ولوحاً

وكان يكتب ثم يمشى ثم يكتب من جديد .
كلمة عابرة قالها بالأمس لى
أحسست أنها تعلن إتمام عمله .
لم تبق أمامه غير لمسات صغيرة
ويقدم لمروءتك التى طالما أنعمت بها عليه
الهدية التى هى بها جديرة .
ألفونس : مرحباً به إن حملها إلى ،
ولينل عفوى إلى أمد طويل .
بقدر ما أبدى من الاهتمام بعمله ،
وبقدر ما تسعد نفسه - ولا بد أن تسعد -
بهذا العمل العظيم،
فإن قللى أيضاً يتزايد كل يوم .
إنه لا يفرغ منه ، ولا يستطيع أن يتمه ،
بل يغير فيه بلا انقطاع ، ويتقدم ببطء ،
ثم يتوقف من جديد ، ويخيب فيه الرجاء :
عسير على النفس أن يرى الإنسان
كيف تفلت منه المتعة،
التى ظنها قريبة منه .
الأميرة : أما أنا فأثنى على هذا التواضع ،
وأمتدح الحرص الذى يسير به
خطوة فخطوة إلى الهدف .

لم تكن أبياته لتتحد فى مجموع حتى ،
حتى ترضى عنه ربات الفن والجمال
وإن نفسه لا تصبو إلى شىء
كما تصبو إلى أن يكتمل قصيده فى كل منسجم .
إنه لا يريد أن يكون خرافة على خرافة
قد تشوق وتسحر ، لكنها تخدعك فى آخر الأمر
ويضيع صداها كما تضيع الكلمات المفككة .
دعه يا أخى ! فإن الزمن
ليس مقياساً للعمل الجيد ؛
وإذا كان للأجيال المقبلة أن تستمتع به ،
فالواجب على الذين يعيشون مع الفنان أن ينسوا أنفسهم .
الفونس : فلنوحده جهودنا ، يا شقيقتى المحبوبة ،
كما فعلنا فى أغلب الأحيان ، لخيرنا المشترك !
إن تشددت عليه ، فتلطّفى أنت معه :
وإن وجدتك مفرطة التسامح ، رحت أتعجله .
ربما وجدناه عندئذ على حين فجأة ،
وقد أدرك الهدف الذى طالما تمنيناه .
هناك فليدهش الوطن ، وليدهش العالم كله
لروعة العمل الذى أتمه .
سأنال أنا نصيبى من ذلك المجد
وستفتتح له أبواب الحياة .

لا يستطيع الرجل النبيل أن يقتصر
فى ثقافته على مجال محدود .
لا بد أن يؤثر الوطن
ويؤثر العالم كله عليه .
لا بد له أن يتعلم
كيف يحتمل الثناء والهجاء .
سوف يجد نفسه مضطراً
إلى أن يحسن معرفة نفسه وغيره،
ولن تستطيع الوحدة أن تهدده
بأوهامها التى تتملقه .
وإذا كان العدو لا يبقى عليه
فلا يجوز للصديق أن يراعيه ؛
هناك يجرب الشاب قدرته على الكفاح
فيحس بكيانه ، ويشعر بأنه قد أصبح رجلاً .
ليونورا : إذن فسوف تقدم له ، يا أمير ، كل ما تستطيع،
كما قدمت له الكثير حتى الآن .
إن الموهبة تتكون فى ظل السكون .
ودوام الحياة هى التى تربي الطباع .
ليت وجدانه يتعلم من دروسك كما تعلم فنه !
فلا يعود يتجنب الناس ، ولا يتحول سخطه
فى نهاية الأمر إلى الخوف والحقْد !

ألفونس : لا يخاف الناس إلا من يجهلهم ،

ومن يتجنبهم سرعان ما يسىء فهمهم .

ذلك هو حاله ، وكذلك يضطرب الوجدان الحر

ويحبس نفسه مع الأيام فى الأغلال .

كثيراً ما أراه يهتم بنيل رضاى

أكثر مما ينبغى لملئه ؛

ويسىء الظن بعدد كبير من الناس،

أعلم تمام العلم أنهم ليسوا أعداءه .

وإذا حدث أن فقد له خطاب

أو انتقل من عنده خادم ليخدم غيره

أو ضاعت إحدى أوراقه،

أسرع إلى الحكم بأن وراءها نية سيئة

وخيانة وحيلاً ماكرة

تريد أن تدمر مصيره .

الأميرة : فلنحاول ، يا أخى ، ألا ننسى

أن الإنسان لا يمكنه أن يتخلى عن نفسه

وإذا حدث لصديق ورفيق سفر أن جرحته قدمه ،

ألا نفضل فى هذه الحالة أن نمشى على مهل،

ونمد له يدنا عن طيب خاطر ؟

ألفونس : الأفضل من ذلك أن نحاول شفاؤه ،

ونسرع بتجربة العلاج الذى ينصح به الطبيب ،

ثم نمضى فرحين مع الرفيق المعافى،
على الطريق الجديد للحياة المستبشرة .
ومع ذلك فإننى أرجو يا أحبائى
ألا يقال عنى إننى تحملت وزر الطبيب القاسى .
إننى أفعل كل ما أستطيع ،
لكى أثبت فى قلبه الثقة والأمان .
وأقدم له أمام الكثيرين
من الدلائل ما يؤكد رضائى .
فإذا جاء إلى شاكيا ، أمرت على الفور بالتحقيق ،
كما فعلت أخيراً حينما صور له الخيال
أن اللصوص قد داهموا حجرته،
فإذا لم يتم الكشف عن شىء
شرحت له رأى فى اتزان ،
وكما أن على الإنسان أن يجرب كل شىء ،
فإننى أجرب الصبر مع تاسو ، لأنه يستحقه :
وإنى لأعلم أنكما تؤيدانى .
لقد أتيت بكما إلى الريف،
وسأعود إلى المدينة فى المساء .
سوف تريان أنطونيو لبضع لحظات ،
إذ سيحضر من روما ليأخذنى معه .
أمامنا أمور كثيرة لا بد من بحثها والانتهاء منها ؛

وقرارات لا بد من اتخاذها ، ورسائل لا بد من كتابتها ؛

وكل هذا يدعوني للرجوع إلى المدينة .

الأميرة : هل تأذن لنا بمصاحبتك

ألفونس : بل ابقيا في بلرجواردو ، وسافرا معاً إلى كونساندولي^(١)

واستمتعا بالأيام الجميلة كما يحلو لكما .

الأميرة : ألا يمكنك حقاً أن تبقى معنا ؟

وتدبر هنا شئونك كما تدبرها في المدينة ؟

ليونورا : وهل تحرمنا على الفور من أنطونيو،

الذي ننتظر منه أن يروى الكثير عما شاهده في روما؟

ألفونس : مستحيل ما تطلبان يا صغيرتي ،

ومع ذلك فسأعود معه ، بأسرع ما نستطيع :

وعندئذ تستمعان إلى حكاياته ، وتساعداني على مكافأته

وهو الذي يبذل في خدمتي الكثير .

فإذا فرغنا من الحديث ،

فليأت الضيوف كجماعات النحل،

ليشيعوا الفرخ في حدائقنا،

ولألق تحت الظلال الرطبة

الجمال الذي أفتش عنه ويحنّ قلبي إليه .

(١) أحد قصور المتعة والترف بالقرب من مدينة «فرارا» .

ليونورا : سنحاول أن ننظر من خلال الأصابع^(١)
ألفونس : وسترين إلى أى حد يذهب بى التسامح .
الأميرة : (وهى تستدير ناحية المسرح) :
أرى تاسو يتقدم نحونا من مدة طويلة
إنه يسير بخطى بطيئة ، ويقف كالمتردد
فجأة بلا حراك .
ثم يعود فيحث السير نحونا ،
وها هو ذا يتوقف من جديد .
ألفونس : حين تريانه يتأمل ويبعد :
فلا تزعجا أحلامه ، بل اتركاه يتجول كما يشاء .
ليونورا : لا ، لقد رأنا ، وها هو ذا قادم نحونا .

(١) أى سنحاول أن نغمض أعيننا !

المشهد الثالث

(السابقون - تاسو)

تاسو : (ومعه كتاب مجلد بالرق) :

ها أنا ذا أتقدم فى بطء ، لأعطيك كتاباً ،

وما زلت أتردد فى تسليمه إليك .

أعلم تمام العلم أنه لا يزال ناقصاً ،

وإنّ بدا عليه أنه تم وانتهى .

إذا كنت قد أحسست بالهم

لأننى أهديه إليك قبل إتمامه ،

فقد استولى علىّ هم جديد

من أن أبدو شديد الخوف ،

أو أظهر فى مظهر الجاحد .

وكما يستطيع امرؤ أن يقول : ها أنا ذا !

فيفرح به الأصدقاء ويسامحونه

كذلك لا أملك أنا أيضاً إلا أن أقول : خذه من يدي !

(يقدم له الكتاب)

ألفونس : أنت تفاجئني بهديتك،

وتجعل من هذا اليوم الجميل عيداً .

ها أنا أحمل الكتاب أخيراً بين يدي،

وأعده على نحو من الأنحاء كتابي !

طالما تمنيت أن تحزم أمرك

وتقول في النهاية : هاك الكتاب ! لقد اكتفيت !

تاسو : إن رضيت به ، فقد تحقق غرضي ،

لأنه كتابكم ، من كل ناحية .

لو أنني فُكِّرت في الجهد الذي بذلته فيه ،

ورأيت الخطوط التي رسمتها ريشتي ،

لقلت لنفسي : إن هذا الكتاب كتابي .

ولكنني كلما أمعنت النظر .

وبحثت عما يعطى هذا القصيد

قيمه العميقة ومنزلته العالية

عرفت أنني لم أستمده إلا منكم .

إن كانت الطبيعة الحنون قد وهبتني

نعمة الشعر الرائعة ،

فقد شاء القدر العنيد

أن يبطش بي ببطشه القاسي ؛

وإن كان العالم بكل ما فيه من جمال

قد سحر عيون الصبي الصغير،

فسرعان ما كدر روحه الشاب
ما حاق بأبويه الحبيبين
من يؤس لم يستحقاه^(١) .
كنت كلما تفتحت شفتاي للغناء
انسكبت منهما الأغنية الحزينة ،
ورحت أصاحب بالأنغام الهامسة
ألام الأب وعذاب الأم .
أنت وحدك الذى خلصتني من هذه الحياة الخائفة،
ورفعتني إلى سماء الحرية الجميلة
أنت الذى أزحت الهموم عن جبهتي،
وحررت روجي فرفرف جناحها بالغناء ؛
وسواء ما كان الجزاء الذى ينتظر كتابي
فإننى أدين لك به ، لأنه منك وإليك .
ألفونس : تستحق الحمد مرتين ،
فأنت تكرم نفسك فى تواضع ،
وتكرمنا سمعك .
تاسو : آه لو استطعت أن أعبر لك

(١) إشارة إلى ما لقيه أبوه برناردو من قسوة القدر . فقد كان شاعر البلاط عند أحد النبلاء فى نابولى ، ثم أهين وطرد من البلاد ، واضطرت زوجته إلى البقاء فى مدينة « سورنت » لتعيش فى بؤس مع طفلها توركوانو (وهو شاعرنا تاسو) وشقيقته كورنيليا .

عن إحساسى الخالص بأن ما أحمله لك
إنما يأتى منك أنت !
ذلك الشاب الذى لم يكن قد جرت شيئاً ،
أكان فى مقدوره أن يستمد هذه القصيدة من نفسه ؟
هل كان فى استطاعته أن يدرك
كيف تدبر الحرب الخاطفة تدبيراً حكيماً ؟
فنون البراعة فى السلاح ، التى يبدىها الأبطال
فى اليوم الموعود
ألمعية القائد وشجاعة الفرسان ،
وكيف يتنافس الدهاء مع اليقظة فى النزال ،
ألم تكن أنت . أيها الأمير الحكيم الشجاع ،
من بث فى نفسى هذا كله ، وكأنتك شيطانى الملهم
الذى يطلو له أن يكشف عن طبيعته السامية
فى جسد إنسان فان ؟
الأميرة : تمتع الآن إذن بالعمل الذى أسعدتنا به !
ألفونس : ابتهج بحفاوة الطيبين !
ليونورا : وافرح بالمجد الذى لا حد له !
تاسو : هذه اللحظة تكفينى .
ما فكرت إلا فيكم ، حين تأملت وكتبت .
رضاكم كان أقصى منأى ،
وإسعادكم كان أسمى أهدافى .

من لا يرى العالم بعيون أصدقائه
لا يستحق أن يلتفت العالم إليه .
هنا وطنى ، وهنا دائرة الصحاب
الذين ترتاح نفسى إلى المقام بينهم .
هنا تصغى روحى ، وتلتقط كل إشارة،
هنا تتكلم التجربة، والمعرفة، والذوق،
أجل، وهنا تضل الفنان وتملؤه ذعراً :
أماً من يشبهكم، فهو وحده الذى يفهم ويحس،
وهو وحده الذى يحق له أن يحكم ويثيب !
ألفونس : إذا كنا نمثل العالم فى الحاضر والمستقبل
فلا يخلق بنا أن نأخذ بغير أن نعطى .
العلامة الجميلة، التى تشرف الشاعر
والتى يراها البطل نفسه - وهو الذى يحتاج إليها
على الدوام - تتوج رأسه فلا يشعر بالحسد،
أراها هنا تزين جبهة سلفك العظيم .
(مشيراً إلى تمثال فرجيل النصفى)
أكانت هى المصادفة، أم هى يد الجان
التي عقدتها وجاءت بها ؟ إننى لا أراها هنا عبثاً .
أسمع فرجيل يقول : ما الداعى لتكريم الموتى ؟

لقد لقوا فى الحياة جزاءهم، وأخذوا نصيبهم من
السعادة؛

إن كنتم حقاً تعجبون بنا وتبغون أن تكرمونا،
فأعطوا الأحياء كذلك نصيبهم .
يكفى ما وضعوه على تمثالى المرمى من أكاليل -
أما الغصن الأخضر فقد خلق للحياة .
(ألفونس يشير إلى شقيقته فتزعم الإكليل من فوق
تمثال فرجيل وتقترب من تاسو الذى يتراجع إلى
الوراء)

ليونورا : أترفض ؟ أنظر أى يد تمد إليك،

التاج الجميل الذى لا يذبل !

تاسو : دعونى أتردداً فلست أدرى

كيف يمكننى أن أعيش بعد هذه اللحظة .

ألفونس : عش لتستمتع بالهدية الرائعة

التي أفزعك فى اللحظة الأولى أن تنالها .

الأميرة : (وهى ترفع الإكليل إلى أعلى) :

أتح لى السعادة النادرة يا تاسو،

لأعبر لك فى صمت، عما يدور فى فكرى

تاسو : هذا العبء الجميل من يديك الغاليتين

دعينى ألتقاه راکعاً على رأسى الضعيف .

(يركع على قدميه : الأميرة تضع التاج على رأسه)

ليونورا : (مصفقة) ليعش من يتلقى الإكليل لأول مرة !

كم يزين رأس الرجل المتواضع !

(تاسو ينهض واقفاً) .

ألفونس : ليس إلا رمزاً لذلك التاج،

الذى سيجل جبهتك فى «الكابيتول» .

الأميرة : هناك ستحييك الهتافات العالية!

أما هنا فتكافئك الصداقة بشفاها هامسة .

تاسو : انزعوه من على جبهتى، أبعدوه !

إنه يلهب خصلات شعرى !

كمثل شعاع الشمس الحارق الذى يقع على رأسى

أحس به يبدد قدرتى على التفكير .

وأشعر بحرارة الحمى تعصف بدمى .

أعذرونى ، إنه كثير على !

ليونورا : بل إن هذا الغصن يحمى رأس شاعر

يسير فى بلاد المجد الدافئة،

ويرطب جبهته .

تاسو : لست جديراً بهذا الترطيب

الذى لا يخلق إلا بجباه الأبطال .

أيتها الآلهة ! ارفعيه بين السحب

حتى يظل عالياً خفاقاً لا يدركه أحد !

واجعلى حياتى سعياً خالداً نحو هذا الهدف !

ألفونس : من نال متع الحياة الصافية فى سن الشباب،

تعلم فى ربيع العمر كيف يقدر قيمتها العالية؛

ومن ذاق طعمها وهو فى عنفوان صباه،

لم يشعر بالحرمان مما امتلكه ذات يوم؛

ومن ملك فقد تحصن .

تاسو : ومن أراد أن يتحصن ،

وجب أن يحس فى قلبه بالقوة التى لا تخونه أبداً .

أه ! إنها تخوننى الآن !

هذه القوة المفطورة تتخلى عنى

وهى التى علمتنى كيف أصمد للقدر

وأواجه الظلم فى كبرياء .

هل أذاب الفرح قوتى، هل بددت النشوة النخاع

من أعضائى ؟

ركبتاى تسقطان بى ! ها أنت ذى أيتها الأميرة

تريننى راکعاً أمامك للمرة الثانية !

استجيبى لدعائى : انزعى هذا التاج عن رأسى !

حتى أحس كأننى أستيقظ من حلم جميل،

لأبدأ حياة منتعشة جديدة.

الأميرة : ما دمت قادراً على حمل الموهبة التى أسبغتها عليك الآلهة

بقلب متواضع رضى،

فتعلم كذلك كيف تحمل هذه الفروع الخضراء،
فهى أجمل ما نستطيع أن نهديه إليك .
من يلامس هذا الشرف رأسه مرة،
فسوف يرف حول جبهته إلى أبد الأبدین .
اسـو : إذن فاتركينى أغادر خجلاً هذا المكان !
دعيني أخفى سعادتي فى الغابة العميقة،
كما تعودت أن أخفى فيها أحزاني .
أريد أن أتجول هناك وحيداً،
فلا تذكرنى عين بالسعادة التى لا أستحقها .
فإذا رأيت صورة رجل يحمل تاجه الرائع،
منعكسة على مرآة نبع صافية،
يتنكر فى سكون بين الأشجار والصخور
وتسقط عليه ظلال السماء الزرقاء
فسوف يبدو لى كائن ي أرى الإليزيوم^(١)
منعكساً على صفحة المياه الساحرة .
هناك أتأمل فى هدوء وأسأل نفسى :
ظل من هذا ؟ أهو الشاب الذى عاش قديماً ؟
أهو الذى يحمل تاجاً رائعاً على رأسه ؟
من الذى يقول لى اسمه ؟ من يحكى أمجاده ؟

(١) هو فى الأساطير الإغريقية جنة السعداء، ومقام المنعمين الخالدين .

ويطول بى الانتظار فأتمنى
لو أن شاباً آخر جاء، وبعده ثان
وجمع بينهما حديث ودود !
أه لو أرى الأبطال، لو أرى شعراء العصر القديم،
مجتمعين حول هذا النبع !
أه لو استطعت أن أراهم هنا،
متحدين إلى الأبد، كما كانوا فى عالم الأحياء .
كذلك تؤلف قوة المغنطيس بين الحديد والحديد،
كما يؤلف النزوع الواحد بين البطل والشاعر .
لقد نسى هوميروس نفسه، ووهب حياته كلها
فى تأمل رجلين اثنين،
والإسكندر لن يسعد فى الإليزيوم
حتى يلتقى بأخيل وهوميروس .
أه لو استطعت أن أكون معهم،
لأرى كيف تتحد أعظم النفوس !
ليونورا : أفق ! أفق ! لا تحملنا على الإحساس
بأنك تنكر الحاضر أو تتجاهله .
تاسو : بل إن الحاضر هو الذى يسمو بى،
وإن بدوت فى الظاهر غائباً عن البال،
فإن روحى فى أوج النشوة .

الأميرة : تسعد نفسي حين أسمعك تحدث الأرواح،
بصوت يفيض إنسانية، وأنصت إليك في سرور .
(تتقدم إحدى الوصيفات من الأمير وتهمس شيئاً
في أذنه) .

ألفونس : لقد حضر ! اختار اللحظة المناسبة !
أنطونيو ! - أحضره إلى هنا ! - ولكن ها هو قادم !

المشهد الرابع

(السابقون - أنطونيو)

ألفونس : مرحباً بك ! يا من جئنا

بشخصك وبالبشارة السعيدة .

الأميرة : تقبل تحيتنا !

أنطونيو : لا أكاد أقوى على التعبير عما يغمرنى من فرح

وأنا أجد نفسى بينكم من جديد .

كل ما حرّمته وطال حرمانى،

أراه الآن مرة أخرى أمامكم .

يبدو عليكم الرضا بما فعلتُ، وما حققت يداى؛

وهكذا أرانى، وقد كوفئت على ما لقيت من متاعب،

على أيام تابرت فيها فارغ الصبر،

وأيام أضعتها عن قصد وتدبير .

الآن قد حصلنا على ما نتمناه

ولم يعد هناك محل للنزاع .

ليونورا : أنا أيضاً أحبيك، وإن كان يحزننى
أنتك لم تأت إلا فى اليوم الذى ينبغى على أن أسافر فيه
أنطونيو : ألكى لا تتم سعادتى
تسليينها أجمل نصيب ؟
تأسو : وأنا كذلك أحبيك ! وأرجو أن أجد السعادة
بالقرب من الرجل المجرب الحكيم .
أنطونيو : ستجد منى الصدق والإخلاص،
إذا استطعت أن تلقى من دنياك نظرة على دنيائى .
ألفونس : على الرغم من أنك أخبرتنى فى رسالتك
بما بذلت من جهود وما حققت من نجاح،
فما زلت أريد أن أسألك
عن الوسائل التى أنجزت بها مهمتك .
هناك على تلك الأرض العجيبة
يتحتم على الإنسان أن يحسب خطاه
إذا أراد أن يصل إلى الهدف المقصود .
ومن لا يفكر إلا فى مصلحة سيده،
يجد نفسه فى روما فى موقف عصيب :
فروما تريد أن تأخذ كل شىء، ولا تعطى شيئاً،
وإذا قصدها الإنسان لينال شيئاً
لم يفز منها بغير ما جاء به معه،
والسعيد من لا يخرج منها فارغ اليدين .

أنطونيوس : أيها الأمير ! لم يكن سلوكي ولا براعتي
هما اللذان أعاناني على تحقيق مشيئتك .
فأى إنسان مهما كانت فطنته،
لا يجد في الفاتيكان من يتفوق عليه ؟
اتفقت ظروف كثيرة
استطعت أن أستغلها لصالحنا .
إن «جريجور»^(١) يقدرك، ويحييك، وبياركك .
هذا الشيخ الهرم، أجدر من يحمل عبء التاج على
رأسه،
يطيب له أن يتذكر ذلك اليوم البعيد
عندما عانقك وضمك إلى صدره .
هذا الرجل، الذي يفهم كيف يميز بين الرجال،
يعرفك جيداً ويضعك في منزلة عالية !
ولذلك فقد دفعه حبه لك، على أن يفعل لك الكثير .

ألفونس : يسعدني أن يحسن الظن بى
على قدر إخلاص نيته .
غير أنك تعلم تمام العلم
أن من يقف في الفاتيكان وينظر من عل إلى الممالك
يراهها ضئيلة تحت قدميه،

(١) المقصود هو البابا جريجور الثالث عشر .

فما بالك بمن ينظر إلى الأمراء والبشر؟
صارحنى إذن، ما الذى أعانك فى مهمتك؟
أنطونيو : حسناً ! ما دمت تريد ذلك، فهى حكمة البابا العالية
إنه يرى الصغير صغيراً، والعظيم عظيماً .
ولكى يحكم العالم، يحلو له
أن يتساهل مع جيرانه عن طيب خاطر .
إنه يقدر الأرض التى يتركها لك
كما يقدر صداقتك حق التقدير .
إنه يريد أن تظل إيطاليا هادئة،
وأن يكون جيرانه أصدقاءه،
ويسود السلام على حدوده
حتى يستطيع المسيحيون أن يكونوا قوة
تتحد تحت قيادته، لتقضى على الأتراك والملحدين .
الأميرة : هل هناك أحد يعرف الرجال المقربين إليه،
والذين يؤثرهم بالمودة والألفة ؟
أنطونيو : الرجل المجرب وحده هو الذى يملك سمعه، والنشيط
هو الذى ينال ثقته ورضاه .
الدولة التى خدمها وهو شاب،
يحكمها الآن ويؤثر على البلاط،
الذى رآه وعرفه، وكثيراً ما ساس أموره

عندما كان رسولاً إليه منذ سنوات .
إن نظرت النافذة تحيط بالعالم كله،
كما تعرف مصلحة بلاده .
من رآه وهو يدبر شئون الحكم أثنى عليه،
وأُسعده أن تكشف الأيام
عما أَعده في صبر وصمت، حتى حقه .
ما من مشهد في العالم أجمل
من أن يرى الإنسان أميراً يحكم عن بصيرة
ومملكة يطيع فيها كل فرد وهو فخور،
ويؤمن بأنه لا يخدم إلا نفسه،
لأنه لا يأمر إلا بالحق والإنصاف .
ليونورا : ما أشد شوقى لمعرفة هذا العالم عن قرب !
ألفونس : وللمشاركة بالفعل فيه بغير جدال ؟
فمثل ليونورا لن تقنع بالتأمل من بعيد .
كم يكون جميلاً يا صديقتى، فى بعض الأحيان،
أن نشارك بأيدينا الرقيقة فى لعبة الصراع
الدائرة بين الدولة . أليس كذلك ؟
ليونورا : لـ (ألفونس): إنك تريد أن تثيرنى، ولكن بغير طائل
ألفونس : ألسْتُ مديناً لك بهذا من قديم الأيام؟

ليونورا : لا بأس، ولأبق أنا اليوم مدينة لك !

معذرة، ولا تقاطع أسئلتى .

لـ (أنطونيو) : هل فعل الكثير من أجل أبويه ؟

أنطونيو : لم يفعل أكثر مما تقضى به التقاليد .

إن الحاكم الذى لا يعرف كيف يرعى شئون أهله،

يلومه الشعب نفسه على ذلك

إن جريجور يعرف كيف ينفع أقاربه،

الذين خدموا الدولة كرجال أشداء،

فى هدوء واعتدال،

وبذلك يؤدى واجبين متلازمين

بلقطة واحدة .

تاسو : هل تسعد المعرفة أيضاً، ويسعد الفن برعايته ؟

وهل يحذو فى ذلك حذو الأمراء العظام فى قديم

العصور ؟

أنطونيو : إنه يكرم المعرفة بقدر ما تفيد فى تدبير شئون الحكم،

وتعلم الإنسان أن يتعرف الشعوب؛

ويقدر الفن، بقدر ما يشيع الزينة والجمال،

ويضفى البهاء والروعة على روما،

ويجعل من قصوره ومعابده معجزات على الأرض .

لأنه لا يسمح لشئء حوله أن يعيش فى اللهو والفراغ !

فلا بد لمن يريد أن يثبت قيمته من أن يعمل ويخدم .

ألفونس : وهل تعتقد أننا نستطيع عن قريب أن ننهي قضيتنا،

قبل أن يخلقوا لنا المصاعب هنا وهناك ؟

أنطونيو : إن لم يستطع توقيعك،

أو بعض الخطابات التي تحررها بيدك

أن تفض هذا النزاع

فلا بد أن أكون مخطئاً تمام الخطأ .

ألفونس : فلاأحى إذن هذه الأيام التي أحيها

ولتكن أيام سعادة وفوز .

أرى حدودى قد اتسعت وأمنت .

أدبت هذا العمل بغير أن تجرد سيفاً،

واستحققت عليه تاج المدينة .

أريد من سيداتنا أن يعقدنه من فروع البلوط الناضرة

وأن يضعنه على جبهتك مع إشراقة الفجر الجميل .

تأسوا أيضاً سخا علينا فى العطاء

لقد فتح لنا بيت المقدس، وأخجل بذلك المسيحيين،

وأدرك الهدف النأى والمقصد الرفيع

بالجهد الشاق والحماس البهيج،

وها أنت ذا ترى التاج يزين رأسه .

أنطونيو : أنت بهذا تكشف لى اللغز .

فقد عجبت إذ رأيت رأسين متوجين

وأنا فى طريقي إلى هذا المكان .

تاسو : إن كنت ترى سعادتي أمام عينيك

فكم أتمنى لو استطعت أن ترى

بالنظرة نفسها وجداني الخجلان .

أنطونيو : كنت أعرف دائماً أن ألفونس

عندما يكافئ، يجاوز كل الحدود

وأنت الآن تتعلم بدورك

ما يعلمه المقربون منه .

الأميرة : ستعرف عندما تطلع على العمل الذي أنجزه،

أننا كنا معتدلين منصفين .

لسنا هنا إلا أول الشهود

على المجد الذي لن يبخل به العالم عليه،

والذي سيغدقه عليه المستقبل عشرات الأضعاف .

أنطونيو : إن رعايتكم له هي التي تضمن له المجد

ومن ذا يخامر الشك حين تكافئون ؟

ولكن خبريني، من الذي وضع هذا الإكليل على

رأس أريوست ؟

ليونورا : هذه اليد .

أنطونيو : وقد أحسنت صنعاً فهو يزينه

بأجمل مما كان للغار نفسه أن يفعل .

كالطبيعة التي تدثر صدرها الغنى العميق

بثوب أخضر بهيج،

كذلك يدثر برداء الخرافة المتألق
كل ما يجعل الإنسان محبوباً وكريماً .
القناعة، والتجربة، والفهم،
قوة العقل، والذوق، والحس الصافى
بالخير الحق، تبدو فى أغانيه كأنها رموز،
ومع ذلك تسرى فيها حياة شخصية،
وكأنها تستريح فى ظلال الأشجار المزدهرة،
تغطيها ثلوج الزهرات الخفيفة الحمل، وتتوجه
الورود،
بينما تحيط بها آلهة الحب العابثة،
وتلعب لعبها الساحر كالأطفال .
نبع الفيض يهمس بجانبها
ويرينا أسماكاً عجيبة الألوان،
الهواء يزدحم بالطيور النادرة
والأنيكة والمرعى بالقطعان الغريبة
الخبث يتصنت بين الأشجار، ويتكشف ثم يتخفى،
والحكمة التى يرن صوتها فى سحابة ذهبية
ترسل عباراتها السامية من حين إلى حين،
بينما يبدو كأن الجنون يهذى فى وحشية
على قيثارة محكمة الأوتار
ويلتزم مع ذلك بإيقاع الأنغام .

من أحس أنه جدير بأن يضع نفسه بجانب هذا الرجل،
فقد استحق على جسارته هذا الإكليل،
اعذروني إذا كنت أحس بالحماس يغمرني،
وأندفع كاللهم النشوان، فلا أفكر في الزمان أو المكان
ولا أتدبر ما أقول؛
فهؤلاء الشعراء، وهذه الأكاليل،
وهذه الثياب البديعة على نسائنا الجميلات،
تنسيني نفسي وتنقلني إلى عالم غريب .
الأميرة : من عرف كيف يقدر فضلاً واحداً،
لم يعجزه أن يقدر فضلاً آخر
سيكون عليك أن تكشف لنا في قصائد تاسو
عما نشعر به وتفهمه أنت وحدك .
ألفونس : تعال يا أنطونيو ! ما زالت هناك أشياء كثيرة، أحب
أن أسألك عنها
بعدها تستطيع أن تفرغ للنساء إلى أن تغرب الشمس
تعال ! الوداع .
(أنطونيو يتبع الأمير، وتاسو يتبع السيدتين) .

الفصل الثانى

قاعة

المشهد الأول

(الأميرة - تاسو)

تاسو : خطواتى تتبعك مترددة يا أميرتى،
وأفكار بلا قيد ولا نظام تضطرب فى روحى .
يبدو لى كأنى أرى الوحدة تشير إلىّ
وتهمس قائلة فى صوت حنون :
تعال أخلصك من هذه الشكوك التى تثور فى صدرك .
غير أنى حين أنظر إليك،
وتسمع أذننى المتلهفة كلمة واحدة من شفقتك
يتجلى لى نهار جديد
وتتكسر عنى الأغلال .
أريد أن أعترف لك
بأن الرجل الذى جاعنا على غير انتظار،
قد أيقظنى بلا رحمة من حلم جميل؛

إن وجوده وكلماته قد صدمتني على نحو غريب،
حتى لأشعر كأئنني نفسان تتصارعان في كياني،
وأئنني بدأت أرتبك وأتنازع مع ذاتي .

الأميرة : من المستحيل على صديق قديم

طالت غيبته وعاش حياة غريبة
أن يعود في اللحظة نفسها، التي يرانا فيها
الصديق نفسه الذي عرفناه من قبل .
إنه في صميم قلبه لم يزل كما كان؛
انتظر حتى نقضى معه أياماً قليلة،
وسوف تتناغم الأوتار هنا وهناك،
ويؤلف بينها الانسجام السعيد .
فإذا تم له كذلك أن يتعرف
على العمل الذي حققته في هذه الفترة،
فلن يتردد في أن يضعك إلى جانب الشاعر
الذي يعارضك به الآن ويصوره في صورة العملاق .

تاسو : آه يا أميرتي ! إن ثناءه على أريوست

لم يسئ إليّ بل أسعدني .
ذلك أن عزاءنا نحن الشعراء،
أن نجد الناس يمتدحون الرجل،
الذي نعدّه المثل العظيم .
هنالك يهمس الواحد منا لنفسه في الخفاء :

إن استطعت أن تدرك نصيباً من قيمته
فلا شك أنك ستنال نصيباً من مجده .
لا . إن ما أثار قلبي من الأعماق،
ولا يزال يملأ نفسي كلها،
هي أشباح ذلك العالم المهول،
التي تلتف حول رجل عظيم بالغ الذكاء
يرسم لها المسار كأنه نصف إله .
لقد استمعت في لهفة واستمتع
إلى الكلمات الرصينة، تخرج من فم الرجل الحكيم،
ولكن آه ! لقد كنت كلما أمعنت في الانتباه
أسقط شيئاً فشيئاً في نظر نفسي،
حتى خشيت أن أتلاشى كالصدى على الصخور،
وأن أضيع كالرنين أو كالعدم وأفقد ذاتي .
الأميرة : وكنت قبل ذلك بقليل تحس إحساساً صافياً
بأن البطل والشاعر متلازمان،
وأن البطل والشاعر يبحث أحدهما عن الآخر
ومن المستحيل أن يحسد أحدهما صاحبه .
حقاً إن الفعل الذي تحتفل به الأغنية
شيء رائع وعظيم، غير أنه لا يقل عن ذلك جمالاً
أن تحمل الأغنية للأجيال القادمة،
روعة الأعمال الكبار .

حاول وأنت تعيش فى مملكة صغيرة ترعاك،
أن تقنع بالنظر إلى العالم المضطرب
نظرة المتأمل الذى يقف على الشاطئ .
تاسو : ألم أفتح عينى هنا لأول مرة فى دهشة
لأرى كيف يكافئون الرجل الشجاع مكافأة رائعة ؟
أتيت إلى هنا كصبي غريب،
فى وقت كانت فيه الاحتفالات والأعياد
تكاد تجعل من «فرارا» مركز الشرف والأمجاد .
يا لذلك المشهد البديع ! حول الميدان المتسع،
الذى ستدور عليه ألعاب الفروسية الرائعة،
كانت هناك دائرة يصعب أن تشرق الشمس على
مثلها مرتين .
هنالك أجمل النساء كن يجلسن متراصات،
وكان يجلس أفضل الرجال فى هذا الزمان .
راحت النظرة المدهوشة تستعرض الجمع النبيل
وهتفت الأصوات : «هؤلاء جميعاً أرسلهم الوطن
إلى هنا، أرسلتهم الأرض الواحدة، الضيقة،
التي تحيط بها البحار» .
إنهم جميعاً يؤلفون أروع محكمة،
فصلت فى الشرف، والحق، والفضيلة .
إن تأملتهم واحداً واحداً لم تجد

من يحتاج أن يخلج من جاره !
ثم فتحت الحواجز، فدقت أرجل الخيول
ولعت الخوذات والدروع،
واندفع الفرسان، ودوت الطبول
وتطاير الشرر وصلصلت السهام،
حين ارتطمت بالخوذات والدروع،
وثارت دوامات الغبار
فغطت مجد المنتصر وعار المهزوم .
أه ! دعيني أسدل ستاراً على هذا المشهد الناصع
حتى لا أشعر فى هذه اللحظة الجميلة
بفداحة الإحساس بهوانى .
ميرة : إن كانت تلك الجماعة النبيلة وتلك الأمجاد،
قد أشعلت فى نفسك لهيب الطموح والاجتهاد،
فقد كان فى استطاعتى، يا صديقى الشاب،
أن أعلمك فى ذلك الحين درساً صامتاً فى الصبر
والاحتمال .
هذه الأعياد التى تثنى عليها،
والتي لم تنقطع مئات الألسنة فى ذلك الحين عن
امتداحها لى،
لم أرها قط . كنت أرقد فى مكان منعزل،

حيث تضيق آخر أصداء الفرح البعيد دون أن يعكرها

شئ،

أعانى آلام المرض وتضنيى الأفكار الحزينة .

كان الموت يتمثل أمامى ناشراً جناحيه،

ويخفى العالم الجديد إلى الأبد عن عيني .

ثم بدأ يبتعد فى ببطء، لأرى ألوان الحياة الزاهية،

شاحبة لا تزال وإن كانت رقيقة

وكأنى أراها من خلال قناع .

رأيت الصور الحية تتحرك ناعمة من جديد .

كنت أغادر غرفة المرض لأول مرة، مستندة على

وصيفاتى،

حين أقبلت لوكرىتسيا فى بهجة الشباب

وهى تسحبك من يدك .

كنت فى حياتى الجديدة

أول وجه مجهول يلاقينى .

هناك رجوت الكثير من أجلك ومن أجلى،

والى هذه اللحظة لم يخب الرجاء .

تاسو : وأنا، أنا الذى أعيانى الزحام المختلط،

وأعشى عيني بريق المجد، واضطربت فى نفسى

الأحاسيس .

كنت أسير صامتاً إلى جانب شقيقتك فى طرقات
القصر الهادئة .

حتى دخلت الحجرة التى طلعت علينا فيها، مستندة
على وصيفاتك -

يا لها من لحظة فى حياتى ! أه فلتغفرى لى !
فكما ينعم القرب من الآلهة بالشفاء
على المفتون بالوهم والخيال،
كذلك شفتنى نظرة فى عينيك،
من كل أوهام الخيال وزيف الطموح والاشتها .
من قبل كانت أشواقى الغريرة
موزعة بين آلاف الأشياء
فتثبت خجلاً إلى نفسى،
وتعلمت أن أحب ما يستحق الحب .
كذلك يبحث الإنسان عبثاً عن لؤلؤة
فى رمال البحر المترامية، بينما هى مستكنة فى جوف
محارة .

الأميرة : بدأنا نعيش أياماً سعيدة،

ولولا أن أمير أوربينو حرماً من شقيقتى
لقضينا السنوات فى سعادة حلوة صافية .
وها نحن وا أسفاه نفتقد الكثير؛

نفتقد الروح المرحّة، والقلب الممتلئ بالشباب والحياة،
والخيال الخصب، بعد أن ذهبت عنا السيدة الحبية .

تاسو : أعرف أن إنساناً لم يستطع

أن يعوضك، عن تلك اليهجة الصافية

منذ ذلك اليوم الذى رحلت فيه .

كم مزق هذا فؤادى !

كم شكوت للغابة الصامته ما أقاسيه من أجلك !

كم هتفت صائحاً : هل من حق هذه الأخت وحدها

أن تشغل قلبها الخالى؟!

أما من قلب آخر يستحق أن تثق فيه ؟

أما من روح أخرى تشعر معها بالانسجام ؟

هل انطفأ العقل وخمد الخيال ؟

ومهما يكن حظ هذه السيدة من الكمال،

فهل كانت هى وحدها كل شيء ؟

غفرانك يا أميرتى ! فقد كنت أحياناً أفكر فى نفسى،

وأتمنى أن أصبح شيئاً بالنسبة إليك .

شيئاً قليلاً بالطبع، ولكنه شيء أحققه بالفعل

لا بالكلام..

وتبين حياتى كيف وهب لك قنبنى نفسه فى صمت .

غير أنني لم أنجح فى هذا،

فكثيراً ما دفعنى الخطأ إلى ارتكاب ما يؤمك،

وكثيراً ما أهنت الرجل الذى أوليته رعايتك
وأشعنت بغبائى التعقيد والاضطراب
فيما أردت له التبسيط والنظام،
وفى كل لحظة حاولت أن أقترب فيها منك
أحسست بأننى أبتعد عنك وأزداد ابتعاداً .
الأميرة : أنا ما أسأت فهم نيتك أبداً يا تاسو،
بل أعلم كيف تسعى إلى إيذاء نفسك بنفسك .
وبينما عرفت أختى كيف تحيا مع الناس وتأخذهم على
علاتهم،
فما زلت فى حاجة إلى سنين عديدة، حتى تفتح
قلبك لصديق واحد .
تاسو : عاتبيني كما تشائين . ولكن خبريني
أين هو الرجل، أين هى المرأة،
التي أجرؤ على أن أفتح لها صدرى
وأتكلم معها فى حرية كما أفعل معك ؟
الأميرة : عليك أن تضع ثقتك فى أخى .
تاسو : إنه أميرى ! - ولكن لا تظنى
أن الرغبة العارمة فى الحرية تنسينى نفسى .
إن الإنسان لم يولد ليكون حراً،
وما من شئ يمكن أن يسعد النبيل
كما يسعده أن يخدم الأمير الذى يجعله .

إن ألفونس سيدي، وأنا أشعر
بكل ما فى هذه الكلمة الكبيرة من معنى .
إن على أن أتعلم كيف أسكت حين يتكلم،
وكيف أطيع حين يأمر،
مهما عارضه عقلى وقلبى .
الأميرة : إن أخى يختلف عن ذلك تماماً .
ولكن ما دام أنطونيو قد رجع إلينا
فستجد فيه الصديق العاقل الذى تطمئن إليه .
تاسو : كنت أطمع فى هذا من قبل، أما الآن فقد كدت أياس .
كم كنت أرجو أن أتعلم من صحبته،
وأنتفع بمشورته فى ألف شىء !
أستطيع أن أقول إن لديه كل ما ينقصنى .
ومع ذلك فإن كانت الآلهة كلها قد أقبلت
لتقدم الهدايا إلى مهده
فقد تخلفت، ويا للأسف، ربات المحبة،
ومن أعوزته عطاياها فربما استطاع
أن يملك الكثير ويهب الكثير،
ولكنه لن يجد أحداً يستريح على صدره^(١) .

(١) وصف دقيق لشخصية أنطونيو التى تنزع إلى السيادة والتحكم، فتبتعد عن أعماق الحياة، وتجاफीها
أرواح الحب والفن والجمال . ومع أن فى هذه الصورة شيئاً غير قليل من الظلم، فإن أنطونيو لا ينكرها
على نفسه . (راجع المشهد الثانى من الفصل الرابع)

الأميرة : ولكنه سيجد من يثق فيه، وليس هذا بالقليل .

أتريد أن تطلب كل شيء من رجل واحد ؟

إن أنطونيو ينجز ما يعدك به .

وما هو إلا أن يعلن صداقته لك،

حتى يتولى من شئونك ما أخطأت أو جهلت .

عليكما أن تتحدا . وسوف أغبط نفسي،

إذا استطعت أن أحقق هذا الهدف الجميل عما قريب .

ولكن حذار أن تعاند كما تعودت أن تفعل !

ها هي ليونورا تقيم عندنا منذ وقت طويل،

وما أرقها وألطفها، وما أسهل أن يحيا معها الإنسان،

غير أنك لم تفكر أبداً

فى أن تكسب ودها كما كانت تنتظر .

تاسو : أنت أمرت فخضعت لأمرك،

ولولا هذا لفررت منها بدلاً من التقرب إليها .

بالرغم من مظهرها الرقيق، فلست أدري

لماذا كان يصعب على أن أفتح لها صدري،

وعندما كنت أشعر بأنها تقصد أن تتلطف إلى أصدقائها

فقد كان الشعور بالقصد يعكر على صفوى .

الأميرة : لو سلطنا هذا الطريق يا تاسو

فلن نعثر أبداً على صديق !

إن هذا الدرب يضلنا

ويجعلنا نتوه فى الغابات الوحيدة والوديان الساكنة؛

وشيناً فشيناً يرضى الوجدان عن نفسه

ويحاول عبثاً أن يخلق فى داخله

ذلك العهد الذهبى^(١) الذى لم يجده فى الخارج .

تاسو : أى كلمة تنطق بها أميرتى !

أين إذن هرب هذا العهد الذهبى،

الذى تتلف عليه القلوب بغير طائل ؟

عندما كان الناس ينتشرون على الأرض الحرة^(٢)

كالقطعان السعيدة الراضية؛

عندما كانت الشجرة العريقة المزهرة

تمد ظلالها للرعى والرعية؛

وعندما كانت الأيكة الناضرة تلف غصونها الميade

لتضم الحبيين الملهوفين؛

والنهر الرقيق ينسكب فى هدوء وصفاء

على الرمل النقى ويعانق حورية الماء؛

والحية المذعورة تتوه فى العشب دون أن تؤذى أحداً،

(١) العهد الذهبى فكرة قديمة تشير إلى العصر السعيد الذى مضى ولن يعود ولكن جوته يغير معناها القديم حين يشير بها إلى عصر يمكن أن يتحقق فى المستقبل، كما تدل على ذلك كلمات فيما بعد

(٢) يلاحظ النقاد فى الأبيات التالية بعض الصور والأفكار المستمدة من قصيدة تاسو «أمينتا» ومن المخلص» للشاعر جواريتى المنافس لتاسو .

والحيوان الجسور يلوذ بالفرار
بعد أن نال العقاب من فتى شجاع؛
وكل طائر يخفق حراً فى الهواء
وكل حيوان يهيم فى الجبال والوديان
يكلم الإنسان فيقول : كل ما يرضيك فهو مباح !
الأميرة : انقضى العهد الذهبى يا صديقى،
وليس غير الأخيار من يحييه من جديد .
هل أصارحك بما يدور فى خاطرى؟
أحسب أن هذا العهد الذهبى الذى يتغنى به الشعراء،
هذا العهد الجميل لم يعرفه الناس قديماً
إلا كما نعرفه نحن اليوم؛
وحتى لو كان قد وجد فى يوم من الأيام،
ففى وسع كل منا أن يعثر عليه من جديد .
ما برحت القلوب المتحابة تتلاقى،
وما برحت تستمتع بهذا العالم الجميل؛
وإنما تتغير يا صديقى فى الشعار
كلمة واحدة . كل ما يليق فهو مباح !
تاسو : ليت أن محكمة عامة تجتمع
من الطيبين والنبلاء،
كى تقرر ما يليق وما لا يليق !
بدلاً من أن يعتقد كل إنسان

أن ما يصح ويجوز هو ما يعود عليه بالمنفعة .

إننا نرى كيف أن الجبار والداهية

لا يضيره شيء ويستبجح لنفسه كل شيء .

الأميرة : إن أردت أن تعلم ما يليق

فعليك أن تسأل النساء النبيلات

ذلك لأن أكثر ما يهمهن

ألا يحدث في الحياة إلا ما يليق .

أن الذوق يحيط كالسور

بهذا الجنس الحساس الرقيق .

حيث تحكم الفضيلة يحكم،

وحيث تغلب الوقاحة لا تعثر لهن على أثر .

فان سألت الجنسين وجدت

أن الرجل يسعى إلى الحرية

والمرأة تسعى إلى الفضيلة .

تاسو : هل ترين أننا غلاظ شرسون،

مجردون من كل عاطفة ؟

الأميرة : لا ! ولكنكم تطمحون دائماً إلى الأغراض البعيدة

وطموحكم لا يخلو أبداً من العنف .

إنكم تخاطرون حين تعملون من أجل الخلود

بينما لا نطمع نحن من خيرات هذه الأرض

إلا في شيء متواضع قريب، نتمنى ألا يزول .

نحن لا نضمن قلب أحد من الرجال
مهما بلغ صدقه فى يوم من الأيام .
الجمال الذى يبدو أنكم لا تجلون سواه، يفنى ويزول
ما يبقى منه لا يجذب أحداً، وما لا يجذب فلا أثر
فيه للحياة .

لو أن الرجال عرفوا كيف يقدر قلب المرأة،
لو تبيينوا أى كنز نقى من الحب والوفاء،
يمكن أن يضمه صدر امرأة
لو أن ذكرى الساعات الجميلة النادرة
بقيت حية فى نفوسكم،
لو أن نظرتكم النفاذة بطبيعتها
استطاعت كذلك أن تنفذ خلال القناع
الذى تلقيه الشيخوخة أو المرض علينا .
لو أن التملك، الذى كان ينبغى أن يكون مصدراً
للسلام،

لم يوقظ فيكم التعطش إلى المجهول البعيد :
إذن لأشرق علينا يوم جميل
ولاحتفلنا بعصرنا الذهبى .

ناسو : كلماتك أيقظت فجأة

هموماً كادت تهجع فى قلبى .

الأميرة : ماذا تقصد يا تاسو ؟ تكلم معى بحرية .

تاسو : سمعت أكثر من مرة، وأسمع فى هذه الأيام

- ولو لم أسمع عن ذلك شيئاً، لوجب على أن أتصوره -

أن بعض الأمراء النبلاء يسعون إلى طلب يدك !

هذا الذى كان ينبغى أن نتوقعه

أصبحنا الآن نخشاه حتى يكاد اليأس يصيبنا .

سوف تتركينا، هذه مشيئة الطبيعة،

لكننى لا أدري كيف سنحتمل هذا الفراق .

الأميرة : لا تحمل الآن هما !

بل أكاد أقول : لا تحمل أبداً أى هم !

إننى أحب الحياة هنا، وأحب أن أبقى فى هذا المكان .

لست أعرف إلى الآن أن هناك صلة يمكن أن تغرينى .

وإذا كنتم تريدون أن تستبقونى معكم

فأثبتوا لى ذلك بالتآلف بينكم،

وتعلموا أن تسعدوا أنفسكم لكى أسعد بكم .

تاسو : آه، علمينى أن أفعل ما أستطيع !

إن أيامى كلها ملك يديك .

حين يزدهر قننى بثنائك وشكرى،

أحسن بأصغى سعادة يمكن أن يحسها بشر .

حقيقة الأثرية السامية لم أعرفها إلا فيك .

كذلك تتميز آنية هذه الأرض عن بقية البشر،

كما يتميز القدر الأعلى عر مستورة أحكم الناس
وإرادتهم .

إنهم يتركون أشياء كثيرة، هي في حسابنا أمواج
عالية صاخبة،

تمر كالموجات الخفيفة تحت أقدامهم بغير أن يلحظوها،
إنهم لا يسمعون العاصفة التي تدوى حول رؤوسنا
وتدحرجنا،

لا يكادون يحسون شكوانا ويتركونا
نحن الأطفال الضعفاء المساكين،
نملأ الهواء بالتنهد والصياح .

أنت قد تحملتني كثيراً، يا أيتها الصديقة الإلهية،
وكالشمس جففت نظرتك الندى من أجفاني .

الأميرة : تتصف النساء إذ تعاملك معاملة رقيقة :

فأغانيك تترنم بالمرأة بمختلف الألحان .

وسواء كن رقيقات أو جريئات،

فقد استطعت دائماً أن تصورهن

في صورة محبوبة ونبيلة

وإذا كانت «أرميد» تبدو في أول الأمر كريهة^(١)

فسرعان ما نسلم السلاح أمام فتنتها وحبها .

(١) في هذا الموضع والمواضع التالية إشارات عديدة إلى شخصيات وأحداث ترد في ملحمة تاسو «أورشليم المحررة». وهنا إشارة إلى حب الساحرة أرميد لرينالدو . فهي تشعر أنه يمتحنها فتحاول أن تقتل نفسه ولكن رينالدو يمنعها من ذلك ويتصالحان

تاسو : مهما تنوعت الأنغام فى قصائدى

فأنا أدين بها جميعاً لواحدة، لامرأة واحدة !

ليست صورة مثالية غامضة، تلك التى تطوف أمام
عينى،

وتقترب مرة لتبهر روحى بضياؤها وتختفى مرة أخرى
لقد رأيتها بعينى، نموذج كل فضيلة ومثال كل
جمال؛

كل ما أبدعته على صورتها سوف يبقى :

حب تانكريد البطولى لكورند^(١)،

وفاء أرمينيا الهادئ الذى لا يلفت أحداً^(٢)،

عظمة سوفرونيا وتعاسة أولنده^(٣)،

ليست هذه أشباحاً ولداها الخيال،

فأنا أعلم أنها خالدة، لأنها كائنة .

وهل يحق لشيء أن يعبر القرون

ويواصل النمو والإشعاع فى سكون

كما يحق لسر حب نبيل

لم يتق إلا فى أغنية عذبة ؟

(١) يتبارز تانكريد وكورنده بغير أن يعرف أحدهما الآخر، ولا يكتشف تانكريد حبيبته إلا بعد أن يجرحها جرحاً مميتاً .

(٢) إشارة إلى رغبة أرمينيا فى شفاء تانكريد بطريقة خارقة .

(٣) وإلى رغبة سوفرونيا فى التضحية بنفسها فى سبيل المسيحيين، مما يعذب أولنده

..الأميرة : هل أحدثك أيضاً عن فضيلة أخرى،

تجعل هذه الأغنية تتسلل إلى قلوبنا؟

إنها تسحرنا وتغويننا، فنسمع ونسمع،

ونظن أننا فهمناها

وما فهمناه منها لا نملك أن نعيبه،

وهكذا تغزو هذه الأغنية أفئدتنا .

تاسو : أى سماء، يا أميرتى، تفتحين أبوابها لى !

إن لم يعمنى هذا البريق،

فسوف أرى، أنا الذى يؤست من كل شىء،

سعادة خالدة تهبط إلىّ على أشعة ذهبية .

الأميرة : لا تتماد يا تاسو ! هناك أشياء كثيرة

ينبغى علينا أن نتشبهت بها بعنف،

غير أن هناك أشياء أخرى يمكن بالاعتدال

وبالحرمان أن تصبح ملك أيدينا،

هكذا يريد الحب، كما يقولون، وتريد الفضيلة

التي هى شقيقته . فتذكر ذلك جيداً !

المشهد الثانى

تاسو : (وحده) : أمن حقا أن تفتح عينيك ؟

أجرو أن تتلفت حولك ؟

أنت هنا وحدك !

هل سمعت هذه الأعمدة ما قالته ؟

وهؤلاء الشهود، هؤلاء الشهود الخرس،

على سعادتك الرائعة، هل تشك فيهم ؟

ها هي الشمس تشرق على يوم جديد فى حياتى

لا يمكن أن تقاس به الأيام الخالية .

الآلهة تهبط إلى الأرض وترفع البشر الفانى إليها .

يا للأفق الجديد الذى يفتح لعينى، يا للمملكة

الجديدة !

وأى مكافأة حلوة يجزى بها الشوق الحار !

كنت أحلم بأننى أقترّب من السعادة السامية

فإذا بهذه السعادة تفوق كل الأحلام !

تفكر من ولد أعمى فى النور وفى الألوان كما يشاء

حتى إذا تجلّى له النهار الجديد، ولد له فكر جديد !

ها أنذا أسير على هذا الدرب، مفعماً بمشاعر الأمل
والرجاء،
نشوان أتمايل من الفرحة .
أنت تمنحينني الكثير، كما تمنحنا الأرض والسماء
فتفيض علينا بكفين غنيتين،
وكل ما تطلبينه الآن مني
حق تقتضيه عطايك .
على أن أتعلم الحرمان وأظهر الاعتدال
لكي أستحق أن تثق بي .
ماذا فعلت إذن حتى تختارني ؟
ماذا عليّ أن أفعل حتى أكون بها جديراً ؟
لقد وثقت بك، وبذلك جعلتك محلاً للثقة .
أجل يا أميرتي ! فلأهب روحى إلى الأبد
لأجل كلماتك ونظراتك !
أجل ! اطلبى ما تشائين، فأنا ملك يديك .
لترسلنى إلى البلاد البعيدة بحثاً عن المجد والمتاعب
والأخطار،
ولتد إلى يدها فى الغابة الساكنة بالقيثارة الذهبية،
ولأنشد من أجلها أناشيد الراحة الهنيئة .
أنا ملكها، فلتخلقنى من جديد لأكون لها .
قلبى احتفظ بكنوزه من أجلها .

لو أن ربا وهبنى أن أتكلم بألف صوت
ما استطعت أن أعبر عن تقديسى لها .
لو أن لى فرشاة الرسام وشفة الشاعر،
أحلى ما ذاق عسل الصيف من شفاه !
لا، لن يهيم تاسو بعد الآن
وحيداً بين الأشجار وبين الناس
ضائعاً وضعيفاً ومحزوناً !
لم يعد وحيداً، إنه الآن معك .
آه لو أن أنبل الأعمال تمثل الآن أمامى
محاطاً بأبشع الأخطار !
إذن لأقدمت وخاطرت بهذه الحياة
التي تلقيتها من يديك -
ولدعوت أفضل الناس أن يكونوا من أصحابى
ولسرنا فى موكب نبيل، كى نحقق المستحيل
بإشارة صغيرة من يديها .
أيها الملهوف، لم لم تكتم شفتاك ما أحسست به
حتى تجد نفسك جديراً بالسجود عند قدميها؟
كانت تلك هى نيتك، وكانت هى رغبتك الحكيمة،
ومع ذلك فليكن ما يكون ! فأجمل بكثير
أن تتلقى هذه الهدية الصافية التى لم تستحقها
على أن تتوهم أنها كانت من حقك !

كن سعيداً ! فما أروع الأفق الذى يمتد أمامك؟
وما أعظمه ! وما هو الشباب المفعم بالأمال
يفريك بالمستقبل المضىء المجهول .
ترنم يا قلبى ! ويا سماء الحظ
باركى هذه النبتة التى تشرئب إليك !
إنها تتطلع إلى السماء آلاف الأفرع
تبرز منها وتتفتح زهرات .
أه فلتعطنا الثمار، ولتعطنا الأفراح !
حتى تمتد يد حبيبة فتقطف الحلية الذهبية
من أغصانها الخصبة الناضرة !

المشهد الثالث

(تاسو - أنطونيو)

تاسو : مرحباً بك، يا من أراه اليوم لأول مرة !
ومن لم أكن أتوقع أفضل منه . مرحباً بك !
أنا الآن أعرفك وأعرف قدرك،
وبغير ما تردد أقدم لك قلبي ويدي،
وأطمع بدورى ألا تستصغر شأنى .
أنطونيو : أنت تحبونى بهداياك الجميلة
التي أعرف قدرها كما ينبغي،
ولكن دعنى أتردد قبل أن أمد إليها يدي،
فلمست أدرى إن كنت أستطيع أن أرد عليك بمثلها .
لست أحب أن أبوء متعجلاً أو جاحداً،
فأسمح لى أن أكون حكيماً وحريصاً من أجلنا معاً
تاسو : من ذا الذى يلوم هذه الحكمة؟
إن كل خطوة فى الحياة تقنعنا بضرورتها .
ولكن الأجل من ذلك أن تحدثنا النفس
بأن فى استطاعتنا أن نستغنى عن الحرص .

أنطونيو : ليرجع كل إنسان فى هذا إلى إحساسه
لأن عليه أن يتحمل بنفسه وزر خطئه .

تاسو : ليكن الأمر كذلك . لقد قمت بواجبى ،
واحترمت كلمة الأميرة التى تريد أن نكون أصدقاء
وسعيت بنفسى إليك .

لم يكن فى وسعى أن أراجع يا أنطونيو؛
ولكننى لا أنوى أن أفرض نفسى عليك :
ليبق الأمر على ما هو عليه . فربما جاء اليوم
الذى نزداد فيه ألفة، فتحثفى بهديتى
التي ترفضها الآن فى برود وتكاد تحتقرها .

أنطونيو : كثيراً ما يبدو الرجل المعتدل بارداً
بالنسبة لمن يعتقدون أنهم أدفاً من غيرهم إحساساً ،
لأن حرارة الحمى قد تمكنت منهم .

تاسو : أنت تلوم ما ألومه وأتحاشاه .
وأنا، وإن كنت لا أزال شاباً ،
أعلم تمام العلم أن الاتزان خير من الاندفاع .

أنطونيو : تلك هى الحكمة بعينها ! فلتبق دائماً على هذا الرأى

تاسو : من حقل أن تسدى إلى النصيح وتحذرنى ،
لأن التجربة تقف إلى جانبك كالصديقة الوفية .
ولكن صدقنى : أن هناك قلباً هادئاً ،

ينصت إلى الدرس الذى يلقيه كل يوم وكل ساعة
عليه،

ويجتهد فى الخفاء أن يصل إلى ذلك الخير،
الذى تعتقد بقسوتك أنك تستطيع أن تعلمنا فيه
درساً جديداً .

أنطونيو : من الممتع حقاً أن يشغل الإنسان بنفسه
إذا كان فى ذلك بعض الفائدة .

إن الإنسان لا يستطيع أن يعرف حقيقة نفسه بالتأمل
فى نفسه؛ ذلك لأنه يحتكم إلى مقياسه وحده،
فيستصغر نفسه أو يضخمها للأسف فى أغلب الأحيان .
إن الإنسان لا يعرف نفسه إلا من خلال الإنسان،
والحياة وحدها هى التى تعرف كل امرئ بحقيقته .

تاسو : إننى أسمعك فى احترام وأرحب بكل ما تقول .

أنطونيو : ومع ذلك فربما فهمت من هذه الكلمات
شيئاً، يختلف عما أريده كل الاختلاف .

تاسو : إذا سرنا على هذا الطريق فلن نقترّب من بعضنا .
ليس من الحكمة ولا من الخير أن نتعمد إساءة الظن
بإنسان أياً كان .

إن دعوة الأميرة لم يكن لها داع . فقد عرفت من
زمن بعيد،

أى إنسان أنت . أعلم أنك تريد الخير وتفعله .

إن قدرك لا يهكم ، ولهذا تفكر فى غيرك وتقف إلى جانبه،

ويظل قلبك ثابتاً على أمواج الحياة المتقلبة .
هكذا أراك . وماذا يكون شأنى إن لم أسع إليك ؟
ألم أتلّهِف على نصيب من الكنز الذى تضمن به ؟
أعلم أنك لن تندم إذا فتحت لى صدرك،
وأعلم أنك ستصادقنى إذا عرفتنى على حقيقتى :
وقد كنت من زمن طويل فى حاجة إلى مثل هذا
الصديق .

إننى لا أخجل من قلة تجربتى ولا من شبابى .
لم تزل سحابة المستقبل الذهبية ترف حول جبهتى .
آه فلتأخذنى، يا أيها النبيل، على صدرك
ولتعلمنى، وأنا الطائش الجاهل،
سر الاعتدال فى الحياة .

أنطونيو : إنك تطلب فى لحظة واحدة

ما لا يكفله الزمن إلا بالحكمة والروية .

تاسو : إن الحب يكفل فى لحظة واحدة

ما لا يدركه الجهد فى زمن طويل .

لست أرجوك وإنما أطالبك .

إننى أدعوك باسم الفضيلة

التي تجاهد فى الربط بين القلوب النبيلة .

وهل أسمى لك اسما ؟
إن الأميرة هي التي تأمل هذا ، هي التي تريده .
اليونورا هي التي تريد أن تقربني منك ، وتقربك مني
فلا تجعلنا نرفض رغبتها !
دعنا نتقدم إلى الربة متحدتين ،
لنهبها صلاتنا ونمنحها روحنا
ولنحقق معاً ما يليق بها .
مرة أخرى ، هذه يدي ! فصافحها !
لا تتراجع أيها النبيل ولا تتأبَّ
ولتتح لي أجمل متعة يتذوقها الفضلاء ،
الذين يهبون أنفسهم للأفضل في ثقة وبغير تحفظ .
أنطونيو : أراك تبحر بملء شراعك !
فقد تعودت فيما يبدو على أن تنتصر في كل معركة ،
وأن تجد الطرق ممهدة أمامك والأبواب مفتوحة .
إنني أَرْضَى لك بالفضل والسعادة عن طيب خاطر .
غير أنني أرى بوضوح أن كلينا ما زال بعيداً كل
البعد عن صاحبه .
تاسو : ربما فرقت بيننا السنون والتجارب
أما الشجاعة والإرادة الطيبة
فلمست أقل فيهما عن أحد .

أنطونيو : الإرادة لا تكفى للإتيان بجلال الأعمال؛
والشجاعة تصور الطرق أقصر من حقيقتها .
من يصل إلى الهدف يوضع التاج على رأسه،
وكثيراً ما يحرم منه من هو أولى به .
إن التيجان اليسيرة موجودة، ومتعددة الأنواع .
وكثيراً ما ينالها من يتنزه بغير مجهود .
تاسو : إن ما تمنحه يد الرب لهذا أو تمنعه باختيارها عن ذاك
ليس شيئاً يمكن أن يدركه كل من أحب أو شاء .
أنطونيو : أرجع هذا إلى الحظ دون غيره من الأرباب،
بذلك أوافقك لأنه أعمى عن الاختيار .
تاسو : العدالة أيضاً معصوبة العينين،
تغمض البصر عن كل بريق خداع .
أنطونيو : هل يمجّد الحظ إلا المحظوظ ؟!
إنه يجعل له ألف عين ترى فضله،
ويمتدح اختياره الصائب وعنايته الشديدة
وسواء سمّاه «مينرفا» أو ما شاء من أسماء
فهو يعد المنحة مكافأة،
والحلية التي خلعتها عليه المصادفة
زينة نالها عن جدارة واستحقاق .
تاسو : لست فى حاجة إلى أن تكون أوضح من هذا .
كفى ! إننى أنظر فى أعماق قلبك وأعرفك مدى الحياة

آه لو أن أميرتى أيضاً عرفتك على حقيقتك !
لا تبذر فى سهام عينيك ولسانك !
لقد حاولت عبثاً أن توجهها إلى هذا التاج،
هذا التاج الذى لن يذبل على جبينى .
كن كبير القلب ولا تحسدنى عليه
فقد تستطيع عندئذ أن تتنازعى إياه .
إنه عندى أقدس وأسمى ما أملك .
أرنى مع ذلك الرجل الذى نال ما أطمح إليه،
أرنى البطل الذى لم أسمع عنه إلا من حكايات
التاريخ؛
دلنى على الشاعر الذى يستطيع أن يقرن نفسه
بهوميروس أو فرجيل،
لا بل إننى لأطلب منك أن تدلنى
على رجل استحق هذه الهدية ثلاث مرات،
وأخجله هذا التاج أكثر مما أخجلنى ثلاث مرات .
إن فعلت هذا، فسترانى أركع على قدمى
أمام الربة التى أسبغت على هذه النعمة؛
ولن أنهض عندئذ قبل أن تمد يديها
وتخلع هذه الزينة من على جبينى لتضعها على جبينه .
أنطونيو : إلى أن يتم ذلك، فسوف تظل بالطبع جديراً بها .

تاسو : لأوضع موضع الاختبار، فلست أعترض على هذا،

أما الاحتقار فلم أفعل ما يجعلنى أستحقه .

إن التاج الذى كرمنى به أميرى،

وضفرتة أميرتى بيديها

لا يستطيع أحد أن ينكره علىّ أو يسخر به .

أنطونيوس : هذه اللهجة المتعالية، وهذا الغضب الملتهب،

لا يصح أن توجههما إلىّ، ولا يليقان بك فى هذا

المكان .

تاسو : إن ما تسمح به هنا لنفسك، يليق أيضاً بى

هل نفيت الحقيقة من هذا المكان ؟

هل سجنتم الروح الحرة فى هذا القصر ؟

وهل يتحتم على النفس النبيلة أن تتحمل الاضطهاد ؟

أعتقد أن النبل وسمو الروح هنا فى مكانهما الصحيح

أحرام عليها أن تسعد بالقرب من عظماء هذه الأرض ؟

بل إن فى استطاعتها ومن واجبها أن تفعل .

إننا لا نقترّب من الأمير

إلا بالنبالة التى ورثناها عن الآباء؛

فلماذا لا نقترّب منه بالوجدان العظيم

الذى لم تشأ الطبيعة أن تعطيه لكل إنسان

كما لم تشأ أن تمنح الجميع سلسلة من الأسلاف

العظام؟

لا يشعر بالرعب هنا إلا الصفار،
وإلا الحسد الذي يكشف عن عاره؛
كذلك لا يصح لنسيج عنكبوت قذر
أن يعلق بهذه الجدران المرمية .

أنطونيو : أنت تعطيني بنفسك الحق فى امتهانك !
أريد الصبى المتهور أن يغتصب ثقة الرجل و صداقته؟
أتظن نفسك خيراً وأنت عديم الأخلاق ؟

تاسو : خير لى أن أوصف بما تسميه عدم الأخلاق
من أن أوصف بما يمكن أن أسميه بالانحطاط .

أنطونيو : ما زلت صغيراً إلى الحد الذى تستطيع معه التربية
الصحيحة، أن تعلمك السير على طريق أفضل .

تاسو : لست صغيراً إلى حد أن أركع أمام الأصنام،
بل كبير إلى الحد الذى يجعلنى أواجه التحدى
بالتحدى .

أنطونيو : حيثما تكون الكلمة للشفاه والأوتار،
فأنت البطل والمنتصر بلا جدال .

تاسو : ربما كان من الجرأة أن أفترض بيمينى
فهى لم تفعل شيئاً، ومع ذلك فإننى أعتمد عليها .

أنطونيو : إنما تعتمد على التسامح الذى دألك كثيراً
فى حين تابع حظك طريقه الوقح .

تاسو : الآن أشعر أنني تجاوزت الطفولة .
كنت آخر من يمكن أن أجرب معه لعبة السلاح :
لكنك تزيد النار اشتعالاً؛ النخاع يغلى،
والشهوة الأثيمة إلى الانتقام تفور في صدري .
إن كانت لديك الرجولة التي تتباهى بها فهي إلى
النزال .

أنطونيو : أنت تجهل من أنت كما تجهل مكانك .
تاسو : ما من قداسة تدعونا إلى احتمال الهوان .
أنت الذي تكفر وتدنس هذا المكان،
لا أنا الذي جئت أقدم لك أجمل قريان
من الثقة والمحبة والتكريم
إن روحك هي التي تلوث هذا الفردوس،
وكلماتك تلوث هذه القاعة النقية
لا الإحساس الذي يثور في قلبي ويفور .
ويأبى أن يلطخه أدنى عار .

أنطونيو : أي روح عظيم في قلب ضيق !
تاسو : لا يزال فيه متسع للتنفيس عن الصدر .
أنطونيو : العامة تنفس أيضاً عن غضبها بالكلام .
تاسو : إن كنت نبيلاً مثلي فاثبت ذلك .
أنطونيو : إنني كذلك بالفعل، ولكني أعرف مكاني .
تاسو : تعال معي إذن إلى حيث يحكم السلاح .

أنطونيُو : كما لم يكن لك أن تطلبني للنزال، فكَذلك لن أتبعك .

تاسو : بمثل هذه العقبة يرحب الجبن .

أنطونيُو : الجبان لا يتوعد إلا حين يشعر بالأمان .

تاسو : يمكنني أن أزهد في هذه الحماية عن طيب خاطر .

أنطونيُو : اغفر إن شئت ما أذنبته في حق نفسك،

ولكن لا تغفر ما أذنبت به في حق هذا المكان .

تاسو : فليغفر لى المكان أننى احتملت هذا

(يجرد سيفه)

جرد سلاحك أو اتبعنى .

إلا إذا كنت تريد،

أن أحتقرك إلى الأبد كما أكرهك !

المشهد الرابع

(ألفونس - السابقون)

ألفونس : ماذا أرى؟ أى نزاع لم أكن أتوقعه؟

أنطونيو : أنت ترانى، يا أمير، أقف فى اتزان

أمام إنسان تَمَلَّكَهُ الغضب .

تاسو : أتوسل إليك كما أتوسل لإله

أن تمسك زمامى بنظرة واحدة منك .

ألفونس : قل لى يا أنطونيو، وأنت يا تاسو،

كيف نفذ الشقاق إلى بيتى ؟

كيف استولى عليكما، كيف استطاع

أن ينتزع حكيمين مثلكما

عن سبيل الشرائع والأخلاق؟!

إننى فى عجب من الأمر .

تاسو : أعتقد أنك لا تعرفنا حق المعرفة .

هذا الرجل، المشهور بالحكمة والخلق الطيب،

عاملنى معاملة فظة لئيمة

كما يفعل مخلوق لا حظ له من الأدب أو النبيل .
سعيت إليه راجياً فصدني،
لم أياس، فظللت أتقرب منه
لكنه احتدّ في مرارة فلم يسترح
حتى أحال أصفى قطرة في دمي إلى علقم .
معذرة ! لقد وجدتني أجن من الغضب .
ولكن إذا كنت قد أخطأت، فهذا هو المسئول .
لقد أشعل نار الغضب التي استولت على وجرحتني
وجرحته .

أنطونيو : إن حماس الشعراء قد ذهب به بعيداً !
لقد بدأت، يا أمير، بتوجيه السؤال إليّ،
فأذن لي الآن، بعد هذا الحديث المندفع، بالكلام .
تاسو : أجل، إرو ما حدث، إروه كلمة كلمة !

وحاول إن استطعت أن تصف
كل مقطع وكل إشارة أمام هذا القاضى !
أهن نفسك مرة أخرى، واشهد على نفسك !
أما أنا فلن أنكر نفساً ولا نبضة قلب .

أنطونيو : إن كان لديك ما تقوله فتكلم،
وإلا فاسكت ولا تقاطعنى .
إن كنت أنا، يا أميرى، الذى بدأت النزاع
أو كان هذا الرأس المندفع هو الذى بدأ به،

ومن منا الذى يتحمل الخطأ؟

فتلك أسئلة طويلة لا ضرورة الآن للإجابة عنها .

تاسو : كيف هذا ؟! إن السؤال الأول فى رأى

هو من المخطئ فينا ومن المصيب ؟

أنطونيو : ليس هذا صحيحاً، كما قد يخيّل لعقل أفلت منه

الزمام .

ألفونس : أنطونيو !

أنطونيو : مولاي ! إننى أخضع لإشارتك، ولكن مره بأن يلزم

الصمت .

فإذا فرغت من كلامي، أمكنه أن يستطرد الحديث،

وسوف تقرر الأمر بنفسك .

هذا هو ما أريد أن أقول :

إننى لا أستطيع أن أجادله

كما لا أستطيع أن أتهمه أو أدافع عن نفسى

ولا أن أحاول الآن أن أسترضيه .

ذلك لأنه الآن لم يعد إنساناً حراً .

إن قانوناً ثقیل العبء يروح فوق رأسه .

ولن يخفف منه سوى عفوك ورحمتك .

لقد هددنى فى هذا المكان، وطلب منى النزول؛

ولم يكذب يخفى أمامك السيف العارى .

ولو لم تتدخل بيننا يا مولاي

لرأيتنى أقف الآن خجلاً أمامك
وقد نسيت واجبي وشاركته في إثمه .
ألفونس : لـ (تاسو) : لم تحسن التصرف .
تاسو : إن قلبي يبرئني يا مولاي
ولا شك أيضاً أن قلبك يبرئني .
لقد هددت حقاً، وطلبت النزال، وجردت سيفي .
ولكنك لن تتصور كيف راح لسانه اللئيم
ينتقي الكلمات الجارحة،
ولا كيف راح نابه السريع الحاد
يسكب السم الرهيف في دمي،
ولا كيف مضى يشعل نار الحمى ويزيدها اشتعالاً،
لقد ظل يثيرني في هدوء وبرود ويخرجني عن طوري .
آه ! إنك لا تعرفه ! لا تعرفه ولن تعرفه أبداً !
حملت إليه من القلب أجمل صداقة
فألقي عطايي عند قدميه؛
ولو لم تشتعل نفسي غضباً،
لما كانت أبداً جديرة بنعمتك،
ولا استحققت أن تكون في خدمتك
إن كنت نسيت القانون
وحرمة هذا المكان فاغفر لي
لا يصح أن أحتقر في أي مكان،

ولا يصح فى أى مكان أن أحتمل الهوان .
وإذا حدث لهذا القلب، أينما كان،
أن يقصر فى حقك وفى حق نفسه
فعاقبنى واطردنى،
ولا تجعل عينك تقع مرة أخرى على وجهى .
أنطونيو : ما أخفف ما يحمل الشاب الأعباء الثقالة!
وما أيسر أن ينفذ الأخطاء عن ثوبه كما ينفذ الغبار!
لو كنا نعرف سحر الشعر الذى يهوى العبت مع
المستحيل،
أقل مما نعرفه، لكان فى هذا ما يبعث على العجب .
ولا أكاد أصدق يا أميرى
أنك ستستهين بهذا الفعل
أو يستهين به أحد من خدمك .
إن الجلالة تظل بحمايتها
كل من يدنو منها ومن مسكنها الحرام،
كما يدنو من إله .
وكل عاطفة تكبح جماحها
حين تلامس عتبتها،
كأنها تقترب من مذبح مقدس
هناك لا يلمع سيف، ولا يتوعد صوت
ولا تصرخ الإهانة نفسها مطالبة بالشر .

أما وراء ذلك، ففي الميدان متسع
للغضب والحقد والصراع :
هناك لا يهدد الجبان، ولا يهرب الشجاع .
هذه الأسوار قد أقامها أبأوك
على قاعدة من الطمأنينة والأمان،
وشادوا لعزتهم قدساً حصيناً
وحافظوا في جد وذكاء
بالجزاء الرادع على هذا السلام،
وأخذوا المذنب بالنفي والطرده والموت .
لم يكن هناك اعتبار للأشخاص
ولم توقف الرأفة ذراع العدالة
وأحس المستهتر نفسه بالفزع .
وها نحن بعد السلام الجميل الممدود
نرى الغضب المجنون يعود إلى حمى الأخلاق
احسم يا مولاي وعاقب !
ألا يستحق من يلتزم بحدود الواجب
أن يتمتع بحماية القانون ونصرة الأمير ؟
ألفونس : إن ضميري المحايد يستمع
إلى أكثر مما تقولان أو يمكنكما أن تقولاه .
ليتكما أحسنتما أداء الواجب
ولم تلجئاني إلى النطق بهذا الحكم .

ذلك لأن العدل والظلم هنا متقاربان .
إذا كان أنطونيو قد أساء إليك
فإن من واجبه بطريقة أو بأخرى
أن يقدم لك التعويض الذى تشاء .
وسوف يسرنى أن تجعلانى حكماً بينكما .
إن خطأك يا تاسو يجعل منك سجيناً .
إننى أعفو عنك، وأخفف القانون من أجلك .
اتركنا يا تاسو، والزم حجرتك
وأجعل من نفسك حارساً على نفسك .
تاسو : أهذا هو الحكم الذى تقضى به يا أمير ؟
أنطونيو : ألا تتبين فيه رأفة الأب الحنون ؟
تاسو : لـ (أنطونيو) : لم يعد لى من الآن معك حديث .
لـ (ألفونس) : إن كلمتك الصارمة يا أمير
تسلمنى، وأنا الحر، للسجن .
لتكن مشيئتك . ما دمت تعتقد أنها الحق .
ها أنا ذا أحترم أمرك المقدس .
وأسكت الصوت الذى يصرخ فى أعماق قلبى .
إن الأمر جديد علىّ، جديد إلى الحد الذى لا أملك معه
أن أتعرف عليك أو على نفسى أو على هذا المكان
الجميل،
أما هذا الرجل فإننى الآن أعرفه .

سأطيع أمرك، وإن بقي الكثير
مما أستطيع وما ينبغي على أن أقول .
إن الصمت يخرس شفتي . أكانت جريمة ؟
إنها على الأقل تبدو كذلك، فإنني أعد الآن مجرمًا .
وسواء ما يقوله لي قلبي، فأنا الآن سجين .
الفونس : أنت تهول الأمر يا تاسو أكثر مما يستحق .
تاسو : إن الأمر يبدو لي لغزًا،
أو لعله ليس لغزًا، فأنا لم أعد طفلًا .
وأكاد أقول لا بد أن أفهمه .
إنني ألمح نورًا على حين فجأة
وفى لحظة أراه قد خمد .
لا أسمع غير الحكم عليّ، فأنحنى له .
أقول لنفسي : لقد تكلمت كثيرًا بغير طائل .
فتعود من الآن أن تخضع .
أيها العاجز ! لقد نسيت مكانك
وظننت أن قاعة الآلهة على الأرض،
وها هي السقطة المباغثة تفاجئوك .
ارض بالخضوع، فخليق بالرجل
أن يفعل ما يكرهه عن طيب خاطر .
خذ أولاً هذا السيف الذي أعطيته لي
عندما تبعت الكاردينال إلى فرنسا،

لقد حملته فلم أكسب به مجداً ،
 ولم أجز يوماً على نفسي العار .
 ولا فعلت ذلك اليوم .
 هذه الهدية التي علقت عليها الآمال
 أتنازل عنها بقلب متأثر كسير .
ألفونس : أنت لا تدري بشعوري نحوك .
تاسو : كتب على أن أطيع لا أن أفكر!
 كما أراد القدر، للأسف مني،
 أن أزهد في هدية أروع .
 إن التاج لا يناسب السجين،
 ولذلك أنزع بنفسى الزينة،
 التي حسبت أنها ظلمت عني بهيئتي إلى الأبد
 لقد نعمت بالاستعداد الفاتقة في أول الحسب،
 غير أنها سرعان ما سابت مني
 وكأنتني تطارت عليها
 إنك تزعج من نفسك ما لا يستطيع أحد أن يفزعك عنه،
 وما لا يهزم إله لامة الثانية
 إننا نحن البشر، نمتحن امتحاناً عجيباً،
 ربما كان أننا أن نصبر أو نهمل،
 لو لم ترزقنا الطبيعة بالاستخفاف البريء
 تعلمنا الشدة كيف تبديد

فى النعم التى لا تقدر
ونفتح أكفنا بإرادتنا
لتفلى منها النعمة إلى غير رجعة .
مع هذه القبله أذرف دمه
تهبك الزوال ! إنها من حقنا ،
هذه العلامة الرقيقة على ضعفنا .
من الذى لا يبكى حين يرى
أن الخلود نفسه لا يأمن الدمار ؟
الحق الآن بهذا السيف ، الذى لم يكسب من أجلك
شيئاً !
اقترب منه وارقد على قبر سعادتي وأملى ،
كما ترقد على تابوت الشجعان !
ها أنا ذا أضعها طائئراً عند قدميك :
فمن ذا الذى يملك سلاحاً أمام غضبك ؟
ومن يتزين ، يا مولاي ، إن أنت أهملته ؟
إننى أمضى سجيناً ، وأنتظر حكمك .
(يشير الأمير فيرفع أحد الخدم السيف والإكليل
ويحملهما بعيداً) .

المشهد الخامس

(ألفونس - أنطونيو)

أنطونيو : إلى أين يهيم الغلام ؟ بأى الألوان

يرسم قيمته وقدره ؟

إن الشباب، بجهله وقصوره،

يتوهم نفسه شيئاً فريداً مختاراً

ويستبيح لنفسه كل شيء عن كل إنسان .

فليشعر بأنه معاقب، فالعقاب يحسن إلى الفتى

الذى سيشكرنا عليه حين يصبح رجلاً .

ألفونس : لقد لقي عقابه، وأخشى أن يكون قد زاد عليه العقاب .

أنطونيو : إن شئت أن ترأف به

فأعد إليه حرите يا أمير،

وليحسم السيف ما بيننا من خلاف .

ألفونس : إن اتفقت الآراء على هذا فليكن لك ما تريد .

ومع ذلك قل لى، كيف أثرت غضبه ؟

أنطونيوس : لا أستطيع تفسير ما حدث .
ربما أسأت إليه كإنسان ،
غير أنني ما أهنت فيه الرجل النبيل .
إنه في قمة غضبه لم تفلت من شفتيه كلمة نابية .

ألفونس : هكذا بدا لي ما وقع بينكما من خلاف
وحديثك يؤيد ما خطر لأول مرة على بالي .
عندما يتنازع رجلان فالعقل يميل
إلى إلقاء الذنب على أكثرهما حكمة .
لم يكن ينبغي عليك أن تتثير غضبه ،
بل كان الأولى بك أن ترشده وتهديه .
ما زال في الوقت متسم ،
وليس في الأمر ما يضطركما إلى الخلاف .
وما دام السلام يرفرف على بلادى
شئني أحب أن أستمع به في بيتي .
أمد الطمأنينة إليه - إن هذا أمر يسير عليك ،
تبدأ ليونورا سائفتك وتتحول
أن تهذه بكلماتها الرقيقة .
ولتذهب إليه بعد ذلك ، كي تعيد
إليه حريته الكاملة على لسانى ،
ولتكسب ثقته بالكلام الصادق النبيل .
أبصر هذا الأمر بأسرع ما تستطيع

رائيكنر حديد :
أريد أن أضمن إلى عودة السلام بيننا ،
وما من شيء يسهل عليك ، ما دمت تريد
لنمد إقامتنا ساعة أخرى
وبعد ذلك فلنترك للنفس .
أن يتمن في حنان ما بدأت
فإذا رجعنا لم تجد
أثراً لهذا الحادث السريع .
يبدو يا أنطونيو أنك لا تريد
أن تخلي يديك من العمن ، فلم تكمل تفرغ من مهمة
حتى رجعت تبحث عن أخرى ،
أرجو أن تكمل شئنا بالدرجات
أنطونيو : لقد أخلقتني وجعلتني كلماتك
أرى خطئي كما لو كنت أنظر في مرآة عاكفة
ما أسهل أن يطعم الخمر سيداً ذليلاً
يقنعنا ، حين يلقى علينا أياً من هذا

الفصل الثالث

المشهد الأول

الأميرة : (وحدها) أين ليونورا ؟ كل لحظة تمر على

تحرك الألم فى صميم الفؤاد .

لا أكاد أدرى ما حدث،

لا أكاد أدرى من منهما المخطئ .

أه ليتها تجيء ! فلست أحب

أن أتحدث مع شقيقى ألفونس،

قبل أن يعود إلى نفسى الهدوء،

وقبل أن أعرف ما حدث،

وما يمكن أن تصير إليه الأمور .

المشهد الثانى

(الأميرة - ليونورا)

الأميرة : ماذا تحملين معك يا ليونورا ؟ أخبرينى ،

كيف حال صديقنا ؟ ماذا جرى ؟

ليونورا : لم يصل إلى علمى أكثر مما نعلم .

وقع صدام بينهما ، فجرد تاسو سيفه

وفرق شقيقك بينهما . بيد أنه يبدو

أن تاسو هو الذى بدأ النزاع .

إن أنطونيو يذهب ويجيء حراً

ويتكلم مع أميره؛ أما تاسو

فهو منفى وحيد فى حجرته .

الأميرة : لابد أن أنطونيو استقظه،

وأهان الروح الشاعرة فى برود وجفاء .

ليونورا : أنا أيضاً أعتقد هذا . فقد رأيت

سحابة تطوف بجبهته حين أقبل عليه .

الأميرة : أه ! لماذا نغفل فى مثل هذا الموقف

عن طاعة الإشارة النقية الهادئة التى تأتى من القلب ؟

بصوت هامس يتحدث إله فى صدورنا ،

بصوت خافت، ولكنه مسموع، يدلنا

على ما نغتنمه وما نتحاشاه .

بدا لى أنطونيو صباح اليوم

أكثر غلظةً مما عهدتُ وأشد انزواء.

أحسست بأن روى تنذرنى

حين رأيت تاسو يقترب منه .

قلت يكفى أن أرى مظهريهما؛

الوجه والتعبير والنظرة والخطوة !

إنهما مختلفان فى كل شىء،

ولن يستطيعا أبداً أن يتبادلا الحب .

ومع ذلك فإن الأمل، هذا المنافق،

راح يقنعنى بقوله «إنهما عاقلان

نبيلان وبصيران وصديقان لك»

وأى رباط أوثق من رباط

يجمع بين القلوب الكبيرة ؟!

ما كان أجمل وأصدق ما وهب نفسه لى !

أه ليتنى تكلمت على الفور مع أنطونيو !

ترددت، وكان الوقت ضيقاً؛

تهيببت أن أبدأ كلامى معه
فأوصيه بالشاب وألح عليه،
اعتمدت على التقاليد والآداب
والعرف المألوف بين الناس
الذى يرباه حتى الأعداء؛
ولم أخش على الرجل المجرب
من اندفاع الشباب المتهور .
ولكن حدث ما خشيت . ظننت الشر بعيداً،
وها هو الآن قريب . ماذا أفعل ؟ أشيرى على !
ليونورا : أنت تعرفين أنه من الصعب على أن أشير
بعد ما قلته بنفسك . فليس الأمر هنا أمر سوء تفاهم
بين أناس متشابهين فى التفكير،
فذلك أمر تصلحه الكلمات، أو يصلحه السلاح
إن دعا الأمر فى يسر وبغير عناء .
شعرت من زمن بعيد أنهما رجلان
يعادى أحدهما الآخر، لأن الطبيعة
عجزت أن تكون منهما رجلاً واحداً،
ولو فطنا إلى مصلحتهما لأصبا صديقين،
ولو قفا كرجل واحد وتقدما فى الحياة،
قويين سعيدين مرحين،
هكذا كنت أرجو، غير أننى أرى الآن عبث الرجاء .

إن الخلاف الذي وقع اليوم، بيننا أن أمره،
 يمكن أن ينتهي: غير أن هذا
 لا يضمن لنا المستقبل ولا يؤمننا على الغد.
 بعد فحرت أنه من الأفضل أن يسافر تاسو
 ويصبر على المكان إلى حين،
 إنه يستطيع أن يتجه إلى روما أو إلى فلورنسا؛
 هناك ألتقى به بعد أسابيع قليلة،
 وقد أؤثر على وجدانه تأثير الصديق .
 أم أدت تستطعين أن تحولي من جديد،
 أن تقربي أنطونيو منك ومن أصدقائك
 وهو الذي كاد يصبح غريباً عنا
 ظل هذا الذي يبدو الآن مستحيلاً
 قد يحققه الله من الطيب الذي يحقق الكثير .
 تريدين، يا صديقتي، أن تستأثري بالقدرة،
 وتتركيني للحرمان، فهل هذا من الإنصاف ؟
 لن نحرق في هذه الحالة إلا من شيء،
 لن يمكنك أن نستمتعي به .
 أنتى ستبذلنى بحث هذا الهدوء ؟
 بر مستحفظين به، وإن نغيته فى الظاهر .
 لن ين فى ممتعتى على تركه

ليونورا : إذا رأى الأمر كما نراه فسوف يقبل .
الأميرة : من الصعب أن يجنى الإنسان على نفسه بجنايته على
صديق

ليونورا : ومع ذلك فالصديق هو الذى تنقذته فيك .
الأميرة : لا لأن أوافق على أن يحدث هذا .
ليونورا : انتظرى إذن أن يحدث ما هو أسوأ
الأميرة : أنت تعذبيننى ولا تدرين كيف تحسنين إلى .
ليونورا : عما قريب نتبين من المخطئ فينا .
الأميرة : إذا لم يكن مفر من ذلك فلا تلحى على بالسؤال .
ليونورا : من يصمم يهزم الألم .
الأميرة : لا أستطيع أن أصمم، ولكن ليكن لك ما تريدين
ما دامت غيبته عنا لن تطول -

ولنزع شئونه يا ليونورا،
حتى لا يقاسى فى المستقبل من الحرمان،
وحتى يرضى الأمير أن يرسل إليه فى غربته
راتبه الذى يكفل له الحياة .
تكلمى مع أنطونيو، فهو يملك أن يؤثر على شقيقى،
ولن يحفظ هذا النزاع قلبه
على صديقنا أو علينا .
ليونورا : كلمة واحدة منك يا أميرة أقوى فى التأثير .

الأميرة : تعلمين يا صديقتى أننى لا أستطيع
أن ألتمس شيئاً لنفسى أو لأصدقائى ،
كما تفعل شقيقتى التى تعيش فى أوربينو ،
إننى أحب أن أقضى حياتى فى هدوء
وألقى من شقيقى امتناناً
كل ما يستطيع أو يريد أن يعطيه لى ،
كثيراً ما لمت نفسى على هذا ،
لكننى الآن قد تغلبت على هذه النزعة .
وكثيراً ما عاتبتنى صديقة على هذا وقالت لى :
أنت تحبين بطبعك الإيثار ، وهذا شىء جميل ،
غير أنك تبالغين فى ذلك ، فلا تحسين
بما يحتاج إليه أصدقاؤك .
نعم إننى أدع الأمور تجرى فى سبيلها
ولا بد لى أن أتحمل هذا العتاب
ولكن مما يزيدنى سعادة ، أن أتمكن الآن
من أن أمد يد العون لصديقى ،
لقد ورثت هذا عن أمى ،
وأود الآن أن أرعاه .
ليونورا : وأنا يا أميرة أرى الفرصة سانحة
لكى أبرهن له على صداقتى .

لقد كان دائماً يسىء تدبير شئونه،
وسأعرف كيف أساعده كلما احتاج .
الأميرة : خذيه إذن، وإن كتب على الحرمان .
فلتكونى أنت أولى به من كل إنسان
أجل ! إننى أرى أن هذا هو الأفضل .
أحتم على أن أثنى على هذا العذاب
وألتمس فيه من جديد الخير والشفاء ؟
هكذا كان حظى منذ الطفولة،
وأنا الآن قد تعودت عليه .
نحن لا نفقد السعادة الرائعة كل الفقدان
حين نعلم أنها لم تكن من نصيبنا .
ليونورا : أتمنى أن أراك فى يوم من الأيام،
تنعمين بالسعادة التى تستحقينها .
الأميرة : اليونورا ! سعادة ؟ ولكن أين هو السعيد ؟
ربما استطعت أن أقول عن شقيقى إنه سعيد،
فقلبه الكبير يتحمل صروف القدر وهو صبور؛
غير أنه لم ينل أبداً ما هو به جدير .
هل شقيقتى التى تعيش فى أوربينو سعيدة^(١) ؟

(١) إشارة إلى زواج شقيقتها لوكرتسيا من ولى عهد أوربينو الذى كان يصغرها بكثير . فقد فشل هذا الزواج وعادت لوكرتسيا بعد قليل إلى بيت أبويها .

هذه المرأة الجميلة، هذا القلب النبيل الكبير !
إنها لم تهب زوجها الذى يصغرها أطفالاً
وهو يجلسها ولا يشكو منها،
ومع ذلك فالفرح لا يسكن بيتها .
ماذا استفادت أمنا من حكمتها^(٢) ؟
ماذا جنت من علمها الزاخر ومن فكرها الرفيع ؟
هل استطاع أن يحميها من الخطأ الغريب ؟
لقد انتزعونا منها، وهى الآن فى التراب،
ولم تترك لنا نحن الصغار العزاء،
الذى يشعروا بأنها ماتت على وفاق مع الله .
ليونورا : آه لا تتطلى إلى ما يفتقر إليه كل إنسان،
بل فكرى فيما بقى لكل واحد منا،
فكرى فيما بقى لك يا أميرة .
الأميرة : ما بقى لى ؟ الصبر يا ليونورا !
تعلمت أن أمارسه من عهد الشباب .
عندما كان أصحابى وأخوتى
يستمتعون معاً بالأعياد والألعاب،

(٢) كانت ريناتا، والدة الأميرة وشقيقتها لوكرتسيا، ابنة لويس الثانى عشر ملك فرنسا، وكانت على علاقة بالمصلح الدينى المشهور كالفين الذى أقام بضعة شهور فى بلاط «فرارا» واعتنقت مذهبه . وعندما اكتشف ذلك حرمت من تربية أطفالها، واضطر ابنها بعد توليه الحكم إلى الخضوع لمحكمة التفتيش وطردها من البلاد، حيث ماتت فى فرنسا وطنها الأول

- كان المرض يحبسنى فى حجرتى
وكان علىّ أن أرافق الأحزان
وأن أتعلم الحرمان قبل الأوان .
شئ واحد كان يسلينى فى وحدتى،
هو متعة الغناء؛
كنت أسلى نفسى بنفسى،
وأهدد الألم والشوق والأمنيات
على رنين الأنغام الهادئة .
هناك كان يتحول الألم فى كثير من الأحيان
إلى متعة والشعور الحزين نفسه إلى انسجام .
غير أن هذه الفرحة لم تدم طويلاً
فسرعان ما حرمنى منها الأطباء،
وحكموا علىّ بالصمت . كان علىّ أن أعيش وأتعذب،
وأحرم من عزائى الوحيد المسكين .
ليونورا : ولكن الكثيرين من الأصدقاء وجدوا طريقهم إليك،
وأنت الآن صحيحة وفرحة بالحياة .
الأميرة : صحيحة، نعم، أعنى أننى لست مريضة؛
وعندى من الأصدقاء من يسعدنى وفاؤهم .
كذلك كان لى صديق -
ليونورا : وما زال .

الأميرة : وسوف أفقده عن قريب .

كانت اللحظة التي رأيته فيها أول مرة
لحظة حافلة بالمعاني . كنت لم أكد أشفى من عذابي؛
الألم والمرض لم يكونا قد فارقاني،
عدت أنظر إلى الحياة نظرة هادئة رضية،
وأبتهج بالنهار وبالقرب من أخواتي،
وأذوق بلسم الأمل العذب فى ثقة ورجاء .
وجدت الشجاعة التي تجعلنى أنظر إلى المستقبل،
وطالعتنى من علىّ البعد وجوه صديقة .
هنالك، يا إليونورا، قدمت إلى شقيقتى ذلك الشاب،
كان يضع يده فى يدها، وأستطيع أن أعترف لك
بأن قلبى تشبث به، وسوف يحتفظ به علىّ الدوام .

ليونورا : أه يا أميرتى، لا تأسفى على شىء !

فالنفس التي تتعرف على النبل،
تحصل على كنز لا ينتزع منها إلى الأبد .

الأميرة : كل ما هو جميل ورائع

يُخشى منه كما يُخشى من اللهب،
الذى يتألق ويزدهر،

ما دام يرسل نوره فى مسكنك،

وما دامت شعلته تضىء لك .

ما أرق هذا الضوء ! ومن ذا الذى يريد

أو يستطيع أن يستغنى عنه ؟
فإذا مضى يلتهم ما حوله .
فما أبشع الشقاء الذى يسببه !
دعيني الآن . إننى أثرثر، وكان يحسن بى
أن أخفى ضعفى ومرضى،
عنك أنت أيضاً .

ليونورا : إن أسهل ما يبدد مرض الروح،
أن يثق الإنسان بأصحابه ويبتهم شكواه .
الأميرة : إذا كانت الثقة تشفى، فسوف أشفى سريعاً؛
فأنا أثق فيك ثقة خالصة وكاملة .
أه يا صديقتى ! لقد صممت، فليرحل إذن !
لكننى أحس من الآن
بالألم الطويل الممل على مدى الأيام،
حين يكتب على الحرمان من مصدر سعادتى
الشمس لن تقوى أن تزيل من جفونى
صورته الجميلة المضيئة؛
والأمل فى رؤياه لن يملأ الروح
والذى كاد يستيقظ بالشوق البهيج
ونظرتى الأولى فى حدائقنا
ستبحث عنه عبثاً فى ندى الظلال .
كم كنتُ أحس بالرضا الجميل

حين أمضى معه أمسياتي الهادئة !

وكم كان اللقاء معه يزيد

رغبتنا في معرفة أنفسنا وفهمها !

وفى كل يوم يرقى الوجدان

إلى سماء الانسجام الصافية .

يا للغيوم التي تسقط الآن على عينيّ

روحة الشمس وبهجة الضحى،

وسنون العالم البهى الألوان،

قد غاصت الآن فى هوة الفراغ

رفقها الضباب الذى يحيط بى .

كل يوم عشته كان حياة كاملة،

تسكت الهموم فيه وتخرس الهواجس

ويحملنا التيار كالمسافرين السعداء

على موجه الهادئ بغير مجداف .

ها هو الحاضر يظلم

والخوف من المستقبل يتسلل إلى قلبي .

ليونورا : سيعيد إليك المستقبل أصدقاءك،

وسيحمل إليك فرحاً جديداً وسعادة جديدة

الأميرة : أود أن أحتفظ بما أملكه :

فالتغيير قد يسلى، لكنه لا يكاد يفيد .

أبداً لم يدفعنى حماس الشباب

لأن أمد يدي في وعاء الأقدار،
المدى يحنّس بمصادفات العالم الغريب
طمعاً في شيء يرضى قلبي المتلهف الغرير .
نقد حملني على احترامه، ولذلك أحببته
وجدتني أحبه، لأن حياتي معه
نحلت إلى حياة لم أعرفها من قبل .
في أول الأمر قلت لنفسى : ابتعدى عنه !
وكما هربت منه، وجدتني أزداد قرباً
وأحس عذوبة الانجذاب وقسوة العقاب
وأختقت السعادة الصافية الحقة من حياتي،
وجاءت روح شرير فخدعت أشواقى
وأبدلت بالآلام سعادتي وأفراحي .
فيومئذ : إن عجزت كلمات صديقة أن تحمل إليك العزاء
فسوف تستطيع القوى الخفية للعالم الجميل
ويستطيع الزمن الرحيم على غير انتظار،
أن يعيد البهجة إليك .
الأميرة : حقاً إن العالم جميل ! وفي أرجائه الواسعة
ينتشر الخير هنا وهناك .
آه ! ماذا يبدو لنا الخير على الدوام
كأنه لا يبتعد عنا إلا خطوة واحدة،
ويظل الحنين إليه على مدى الحياة،

يجذبنا خطوة فخطوة إلى القبر ؟
من النادر أن يدرك الناس
ما كانوا يحسبونه من نصيبهم
ومن النادر أن يحتفظوا طويلاً
بما استطاعت اليد السعيدة أن تمسك به !
السعادة التي لم تكد تهب نفسها لنا تفلت منا ،
وأيدينا تتخلى عما تشبثت به في نهم .
السعادة موجودة ، لكننا نجهلها ؛
أو نحن نعرفها ، ولكننا لا نعرف كيف نقدرها .

المشهد الثالث

ليونورا : (وحدها) أيها القلب النبيل الجميل، كم أرثى لك!

ويا للقدر الحزين الذى نزل بروحها السامى!

أه ! إنها تفقده، وتفكرين أنت فى أن

تكسبيه ؟

أمن الضرورى حقاً أن يبتعد؟

أم تراك تدبرين هذا الرحيل، كى تستحوذى

على القلب والمواهب، التى اقتسمتها حتى الآن

مع غيرك، وما كانت القسمة عادلة ؟

أمن الأمانة أن تسلكى هذا السلوك ؟

أليست لديك الثروة التى تكفيك ؟ هل

يعوزك شىء ؟

عندك الزوج والولد والغنى، ولديك

المركز والجمال،

تملكين هذا كله، وتطمعين أن تضيفيه إلى

ما تملكين ؟

أُحببته؟ لماذا يشق عليك إذن أن تزهدى
فيه؟
تستطيعين أن تصارحي نفسك - فما أجمل
أن ترى صورتك
منعكسة على روحه الجميلة !
ألا تتضاعف سعادتك وتزداد روعة
حين ترفلك أشعاره فوق السحاب ؟
هنالك تكونين جديرة بالحمد ! ولا تقنعين
بما يحلم به كثيرون سواك،
بل يفرحك أن تبهرى عيون الجميع !
وينادى الوطن باسمك. ويتطلع إليك،
وتلك هى ذروة السعادة والهناء .
أُتكون «لاورا»^(١) هى الاسم الوحيد
الذى تترنم به شفاة المحبين ؟
وهل كان من حق «بتراركا» وحده
أن يرفع الجميلة المجهولة إلى السماء ؟
أين الذى يستطيع أن يقارن نفسه بصديقى ؟
إذا كان العالم يكرمه اليوم،

(١) هو اسم المحبوبة التى يتغنى بها الشاعر الإيطالى «بتراركا» (١٣٠٤ - ١٣٧٤) فى أغانيه، وإن لم يذكر اسمها أبداً فى أشعاره

فسوف تهتف باسمه الأجيال القادمة
ما أجمل أن تعيش بجانبه
في هذا المجد الرائع !
وتمضي معه إلى المستقبل
بخطى خفيفة مجنحة !
لا الزمن عندئذ ولا الشيوخه
يستطيعان أن ينالا منك،
ولا الصيحات الوقحة
التي تتقاذفها أمواج النجاح :
إن أشعاره تخلد ما من طبعه الفناء
وسوف تظنن جميلة وسعيدة
حين تكون دورة الحياة،
قد جذبتك معها من زمن بعيد
يوجب أن يكون لك،
وإن لم تكن، صديقة لك شيئاً،
وماهنتها ندم الرجل القليل
لا تملأك من رغبة عواطفها
إن نورها كنسوة القمر أنشأه
الدم لا يكاد يكشف، المصالح
طريقه في عتمة الليل .
وفي لا تنتمن الأقدار سواب

ولا تسكب الفرح والبهجة بالحياة .
ستكون سعيدة حين تعلم،
أنه على البعد سعيد،
كما كانت تفعل حين تراه كل يوم .
ثم إنني لا أريد أن أنفى نفسي،
أو أنفى صديقى عنها أو عن هذا البلاط :
بل سأعود مرة أخرى وأحضره معى .
ليكن الأمر كذلك ! - ها هو ذا الصديق
الغليظ .
لنر إن كنا سنستطيع ترويضه !

المشهد الرابع

(ليونورا - أنطونيو)

ليونورا : بالحرب جئتنا لا بالسلام،
وكأنك قادم من معسكر أو معركة،
حيث تحكم القوة وتحسم الذراع،
لا من روما حيث ترفع الحكمة الحفية
يدها لتبارك عالماً تراه
يركع عند قدميها ويطيعها عن طيب خاطر .
أنطونيو : لا بد لي، يا صديقتي الجميلة، أن أقبل العتاب
لكنني لن أبحث بعيداً عن وجه للاعتذار .
من الخطر على الإنسان أن يضطر طويلاً
إلى الظهور في مظهر الحكمة والاعتدال .
فهناك روح شريرة تقف إلى جانبنا وتترصدنا
ويصرح على طلب الضحية من حين إلى حين
ويشاء سوء الحظ في هذه المرة،
أن أقدم لها الضحية على حساب الأصدقاء .

فيونوري : لقد عانيت طويلاً بشئون الغرباء
 وبذلت الجهود في كسب رضاهم،
 والآن بعد أن عدت إلى الأصدقاء
 تسيء فهمهم وتجادلهم كأنهم غرباء.
 أنطونيو : هنا، يا صديقتي العزيزة، يكمن الخطر!
 فالإنسان يتحكم في نفسه مع الغرباء،
 ويظل متيقظاً، وهدفه أن يرضيهم لكي يخدموه،
 أما مع الأصدقاء فيترك نفسه على سجيته،
 ويطمئن إلى حبهم، فيبيع لنفسه
 أن يبدى نزوة أو يطلق لمواقفه العنان،
 وهكذا يكون أول من نجرح شعورهم،
 هم أكثر من نكّن لهم الحب
 فيونوري : بهذه الخواطر الهائلة يا صديقي العزيز
 يستعاض أن ألك كما عهدتك من جديد
 أنطونيو : نعم يؤنسني هذا ما أنى أن أعترف به،
 أن أكون أحياناً شاذاً في مشيبي،
 ولكنني، راحلي، ألا بشعر الرجل الذي يعود
 من حبه أشتاق مجبور الجبين
 ويضعني أن يلتصق الراحة في آخر المساء،
 في أمتلئ الحبيب كي يتألمب لعمل جديد،
 ثم يجد إنساناً مثالي البال

يتمدد في الظل على هواه ،
ألا يحس عندئذ بعاطفة
بشرية تتور في صدره ؟
ليونورا : إذا كان إنسانا بحق ، فسوف يسعده
أن يقتسم الظل مع رجل آخر
يجعل الراحة حلوة والعمل خفيفاً
بحديثه العذب وأنعامه الرقيقة .
الشجرة كبيرة يا صديقي والظل كريم
ولا حاجة بأحد لأن يزحرج غيره
أنتوني : لا تريد يا ليونورا أن تلعب بالأمتال
كما تلعب بالكرة من يد إلى يد ،
فكم في هذا العالم من أشياء
تحب لفيرنا أن يفوز بها ، كما نحب أن نشاركه فيها؟
على أن هناك كنزاً لا نحب أن يفوز به
إلا من يستحقه ،
وكنزاً يميز علينا أن يشاركنا فيه
إنسان مهما ارتفعت مكانته .
فإذا سألتني عن هذين الكنزين
قلت هما إكليل الغار والحظوة عند النساء
ليونورا : أليكون الإكليل الذي توج جين الشاب ،
قد أمان الرجل الجاد؟ أكان في استطاعتك

أن تجد لمجهوده وشعره البديع مكافأة أكثر تواضعاً؟
ذلك لأن الفضل الذى يسمو فوق العالم الأرضى
ويرف فى الهواء، فلا تسحر أرواحنا
إلا بأنغامه وصوره اللطيفة،
يستحق كذلك أن يكافأ
بصورة جميلة أو رمز لطيف .
وإذا كان هو نفسه لا يلمس الأرض
فإن مكافأته السامية لا تكاد تلمس جبينه .
إن الغصن اليابس هو الهدية،
التي تقدمها له العواطف اليابسة،
التي يحس بها المعجبون نحوه
لكي تتخفف بأيسر وسيلة من دينها له .
أيمكنك أن تحسد تمثال الشهيد
على الهالة الذهبية التي تحيط برأسه الأصلع ؟
أينما بدا لك إكليل الغار، فهو بغير جدال،
علامة العذاب قبل أن يكون علامة الفرح .
أنطونيوس : أتريد أن أتعلم من فمك الرقيق
كيف أحتقر كل ما على الأرض من غرور؟
ليونورا : لست بالطبع فى حاجة إلى أن أعلمك
كيف تقدر كل شىء بميزانه الصحيح .
ولكن يبدو أن الحكيم يحتاج

من حين إلى حين كغيره من الناس
أن يريه الإنسان النعم التي يملكها
ويعرضها عليه في ضوءها الصحيح .
أنت يا صديقي النبيل لن يغريك الطموح
بالسعى وراء أوهام الحظوة والشرف .
إن الخدمات التي تعرف كيف تربط بها
بينك وبين الأمير والأصدقاء
هي خدمات واقعية وحية،
ولذلك ينبغي أن تكون مكافأتك عليها
مكافأة من الواقع والحياة نفسها .
إن إكليل الغار الذي يليق بك هو ثقة الأمير،
وهو العبء الجميل الذي يستقر
على كتفك كحمل خفيف؛
وسمعتك هي الدليل
على ثقة الجميع فيك .

أنطونيو : ألا تقولين شيئاً عن الحظوة عند النساء ؟
أم تريدين أن تصوّري لى أنه من السهل الحرمان منها ؟
ليونورا : لتتصور ما تشاء ، فأنت لست محروماً منها،
ومن السهل عليك أن تحتل هذا الحرمان،
الذي لا يقوى عليه صديقنا الطيب .
قل لى : إن أرادت امرأة أن ترعاك على طريققتها،

وأن تهيب نفسها لك .

فهل يمكنها أن تجد فرصة للنجاح ؟

كل شيء لديك نظام وأمان،

إنك تهتم بنفسك كما تهتم بغيرك،

وتملك دائماً ما يود الإنسان أن يعطيك إياه .

أماً هو، فيحرك فينا طبيعة النساء؛

فهناك ألف شيء صغير ينقصه

ويسعد كل امرأة أن تقدمه إليه؛

إنه يحب أن يلبس الرداء من الكتان الجميل،

أو يرتدي الثوب من الحرير المشغول .

وهو يصب أن يتزين، بل إنه لا يحتمل

التقماش الخشن الذي يس عني الضم والرقير

ولا يرضى بشيء إلا شجع فيه

الأسفة والجورم، فلي لا يجدال

وحية فذل .

بين حماره وبقه .

مكرك .

يتلذذ قطعة من دسامة هنا وقطعة أخرى هناك،

من حرقه .

إلا وقد ضيغ ثقت بمادته .

والمسرعة الجدة بضميرته

هكذا يا أنطونيو يظل الإنسان

فى قلق عليه طول العام .

أنطونيو : وهذا القلق يجعله أعز وأحب .

ما أسعده من شاب تحسب عيوبه فضائل،

ويتاح له فى سن الرجولة أن يمثل دور الغلام،

ويجعل من ضعفه الرقيق ذريعة للمجد والافتخار !

يجب أن تعذرني يا صديقتي الجميلة،

إذا كنت أعبر عن نفسى بشيء من المראה .

إنك لا تقولين كل شيء، بل تسكتين

على ما يتجرأ عليه، ولا تقولين

إنه أخطأ بكثير مما يتصور الإنسان .

إنه يفتخر بإشعال نارين !

ويربط عقدة هنا ويحلها هناك

ويكسب ممثل هذه الألاعيب أمثال هذه القلوب !

أيمكن أن يصدق الإنسان هذا ؟

ليونورا : حسن ! إن هذا نفسه يكفى لإثبات

أن المحبة وحدها هى التى تحيى القلوب .

وإذا بادلنا الحب بالحب، ألا نكون

قد كافأنا القلب الجميل مكافأة ضئيلة،

وهو الذى نسى نفسه وعاش فى حلم جميل

واهياً حياته كلها لأصدقائه ؟

أنطونيو : دالنه وزدن فى تدليله،
 اجعلن من أنانيته حباً،
 أهْن كل الأصدقاء الذين وهبوا نفوسهم الوفية لكن،
 قدمن للمغرور الطاعة والولاء،
 حطمن روابط الثقة، التى كانت
 تؤلف بيننا فى وئام جميل !
ليونورا : لسنا متحيزات بالقدر الذى تظن،
 فكثيراً ما ننبه صديقنا وننهاه؛
 ونسعى لتربية وجدانه، بحيث يستطيع
 أن يسعد نفسه ويقدم السعادة لسواه .
 أما العيوب التى تأخذها عليه
 فهى كذلك لا تخفى علينا .
أنطونيو : ومع ذلك، فكثيراً ما تمدحن ما يستوجب الملام .
 أنا أعرفه من زمن طويل،
 وإنه من السهل التعرف عليه،
 لأنه من الغرور بحيث لا يخفى نفسه .
 أحياناً يغوص فى نفسه، وكأن العالم كله
 قد استقر فى صدره، أو كأنه اكتفى بعالمه
 فتلاشى عنده كل شىء من حوله .
 إنه عندئذ يتغاضى ويزهد،
 ويطرح كل شىء، كى يعكف على نفسه -

وكما يتفجر اللغم فجأة من شرارة غير منتظرة،
كذلك يتفجر فرحه أو حزنه أو غضبه أو نزوته :
هنالك ينبغي أن يضم كل شيء، ويحوز كل شيء،^(١)
وهنالك يطالب بأن يتحقق كل ما كان يحلم به؛
وأن يتولد في لحظة واحدة،
ما يحتاج إلى سنوات عديدة،
ويحل في طرفة عين،
ما لا تحله الجهود في أعوام .
إنه يطالب نفسه بالمستحيل،
لكي يبيع لنفسه أن يطالب به غيره .
ويريد أن يضم عقله
من كل شيء طرفيه البعيدين؛
قد لا يدرك ذلك واحد من المليون،
وما هو في الحقيقة ذلك الواحد .
وهكذا يعود إلى الانطواء على نفسه،
بغير أن يصلح من أمره شيئاً .

(١) يشهد هذا البيت والأبيات التالية له على أن مشكلة «تاسو» قريبة من مشكلة «فاوست» . فكلاهما يحس بما يسميه «شيلر» في تفسيره للمسرحية بالازدواج، أو بما تسميه الفلسفة المثالية الألمانية على لسان هيجل بالاغتراب . ولقد عبر «فاوست» عن ذلك في أبيات مشهورة يقول فيها : نفسان آه تسكنان صدري، تود الواحدة لو تنفصل عن الأخرى ... إلخ ... ففي «تاسو» و«فاوست» شخصيتان تتشبه إحداهما كالوددة بالأرض، وتنزع الأخرى إلى سماء الحقيقة والمثل الأعلى

ليونورا : إنه لا يؤذى غيره، بل يؤذى نفسه .
أنطونيو : ومع ذلك فهو يجرح إحساس الآخرين ...
هل تنكرين أنه حين يستولى عليه الانفعال
يتجراً على إهانة الأمير والأميرة نفسها
ويتطاول على أى إنسان ؟
صحيح إنه يفعل ذلك فى لحظة واحدة
ولكن هذه اللحظة تذهب وتعود .
وهو عاجز عن التحكم فى فمه،
عجزه عن التحكم فى قلبه .
ليونورا : أظن أنه إذا ابتعد عن هنا فترة قصيرة
فربما ينفعه ذلك وينفع الآخرين .
أنطونيو : لست أدرى . فقد يفيد هذا وقد لا يفيد .
ومع ذلك فليس هذا هو أوان التفكير فيه .
لا أريد أن يقع الخطأ على كتفى ؛
فقد يبدو أننى أنفيه، وأنا فى الحقيقة لا أنفيه .
إننى لا أمانع فى بقائه فى البلاط؛
وإذا أراد أن يتصالح معى
وإذا استطاع أن يستمع لنصيحتى
فقد نستطيع أن نحتمل الحياة معاً .
ليونورا : أنت ترجو إذن أن تؤثر على الوجدان
الذى اعتقدت منذ لحظة أنه لا أمل فيه .

أنطونيو : نحن لا نقطع الرجاء،

فالأمل دائماً أفضل من اليأس .

ومن ذا الذى يضمن ما قد يحدث ؟

إنه يتمتع بتقدير الأمير .

ولا بد أن نحفظ به بيننا .

وإذا لم تفلح جهودنا فى تقويمه،

فليس هو الوحيد الذى نصبر عليه .

ليونورا : لم أكن أتصور أنك تستطيع

أن تتجرد من التحيز والانفعال .

لقد تحولت تحولاً سريعاً .

أنطونيو : لعل مزية السن الوحيدة

أنه، وإن لم يجنبنا الخطأ،

فهو يجعلنا أقدر على التحكم السريع فى نفوسنا

لقد بذلت جهدك فى أول الأمر

لكى توفقى بينى وبين صديقك .

وأنا الآن أطلب هذا بدورى منك .

افعلنى ما تستطيعين حتى يعود إلى رشده

ويرجع كل شىء إلى حاله القديم .

سأذهب بنفسى إليه إذا عرفت منك

أنه قد استعاد هدوءه،

وإذا رأيت أن زيارتى له

لن تزيد الحالة سوءاً .

ولكن افعلنى الآن ما تريد أن تفعله؛

فسوف يعود ألفونس مساء اليوم، وسأكون فى
صحبتة .

والآن الوداع !

المشهد الخامس

ليونورا : (وحدها) لم نتفاهم، يا صديقى العزيز، فى هذه
المرّة على رأى،
فمصلحتى لا تسير اليوم يدأ فى يد مع مصلحتك .
سأحاول أن أستغل الساعات الباقية
وأكسب تاسو إلى جانبى .
الوقت قد أُرّف !

الفصل الرابع

حجرة

المشهد الأول

تاسسو : (وحده) هل صحوت من حلم
وتخلّى عنك الوهم الجميل؟
أم هبط عليك النوم فى يوم رائع البهجة
ولم يزل يأسر روحك ويخيفها بقيوده الثقال؟
نعم، أنت تحلم فى اليقظة .
أين ذهبت الساعات التى كانت
تلف حول جبهتك أكاليل الزهور؟
وأين الأيام التى كانت روحك فيها،
تعبّر زرقة السماء على جناح الشوق الطليق؟
ومع ذلك فما زلت تعيش وتحس بوجودك،
تحس بوجودك ولا تدري إن كنت تعيش .
أهو خطئى، أم خطأ إنسان غيرى
أن أحيا هنا حياة المذنبين؟

هل اقترفت جريمة، حتى يحق على العذاب ؟
أليس فى خطئى كله فضل يحسب لى ؟
رأيتـه فامتلاً قلبى بالأمل
وغرتنى الإرادة الطيبة،
فظننت أن من يحمل وجه إنسان
لا بد أن ينطوى على روح إنسان .
اندفعت إليه مفتوح الذراعين
فوجدت مكان القلب، القفل والمزلاج .
آه ! لقد كنت دبرت الطريقة التى أستقبل بها
ذلك الرجل الذى كنت أرتاب فيه من زمن طويل !
لتكن تجربتك مع ذلك ما تكون،
فعليك أن تتمسك بهذا اليقين :
لقد رأيته ! لقد وقفت أمامى !
وتكلمت إلىّ، وسمعت كلامها !
نظرتها، وصوتها، ومعنى كلامها الرقيق
أملكها إلى الأبد، ولا يسلبها منى الزمان
ولا ينتزعها القدر ولا الحظ الغدار !
وإذا كانت روحى قد سارعت بالتحليق فى الأعالي،
وإذا كنت قد رعيت فى قلبى اللهب الذى ياكلنى
الآن،
فلمست نادماً على هذا، ولو دمر إلى الأبد حياتى .

وهبت لها نفسى وأطعت الإشارة
التي دعتنى إلى الهلاك وأنا فرحان .
ليكن ! فقد أثبت أننى جدير
بالثقة الغالية التي تعزىنى
حتى فى هذه الساعة التي تنفتح لى فيها
البوابة السوداء التي تتوالى منها الأحزان .
أجل، لقد تم كل شئ ! وها هى شمس رضا
الجميل
تأفل فجأة وتغيب؛
والأمير يحرمنى من نظرتة الحنون
ويتركنى تائهاً على طريق ضيق كئيب .
ها هى الطيور البشعة تحوم حولى،
والموكب الملعون الذى يتبع الليل العجوز يدور حول
رأسى .
إلى أين، إلى أين أحرك خطاى،
لأفر من هذه الأسراب الكريهة التي تحاصرني
وأنجو من الهاوية التي تفتح فوهتها لى؟

المشهد الثانى

(ليونورا - تاسو)

ليونورا : ماذا جرى ؟ أى غضب يا عزيزى،

وأى تهور دفعك إلى هذا ؟

كيف حدث ما حدث ؟

إننا جميعاً فى ذهول .

أين دماثتك وطبعك الرقيق،

ونظرتك النافذة، وعقلك السديد،

الذي يجعلك تؤدى لكل إنسان حقه،

وصبرك وجلدك الذى علمك أن تحتمل

ما يحتمله النبيل، وما يندر أن يتعلمه المغرور،

والتحكم الذكى فى الشفتين واللسان -

يا صديقى العزيز، إنى أكاد أنكرك .

تاسو : وإذا كان كل هذا قد تبدد الآن ؟

وإذا كنت ترين الصديق الذى حسبته غنياً

يقف أمامك الآن كما يقف الشحاذا؟

معك الحق، فلم أعد كما كنت،
ومع هذا، فما زلت كما كنت تعرفين .
الأمر يبدو لغزاً، ومع ذلك فلا لغز فيه .
القمر الوديع، الذى يسعدك بالليل،
ويسحر نوره عينيك ووجدانك
سحراً لا يقاوم، يلوح بالنهار
سحابة شاحبة ضئيلة تطوف بالسماء .
لمعان النهار قد أخفى ضيائى
إنكم تروننى، وتعرفوننى،
أما أنا فما عدت أعرف نفسى .
ليونورا : لست أفهم يا صديقى ما تقوله لى
على النحو الذى تقوله . أوضح لى ما تريد
هل كدرك إهانة الرجل الفظ
إلى الحد الذى أصبحت معه
تسئء فهم نفسك وتسئء فهمنا ؟
ضع ثقتك فى .
تاسو : لست أنا المهان ما دمت ترين
أننى عوقبت عقاب المهين .
كان فى استطاعة السيف أن يحل الكثير
من عقد الكلام فى خفة وسهولة
غير أننى الآن سجين .

هل تعلمين - لا تفزعى يا صديقتى الرقيقة.

أن صديقك الآن فى زنزانة ؟

إن الأمير يؤذبنى كما يؤذب التلميذ .

أنا لا أحاسبه، ولا أستطيع .

ليونورا : يبدو عليك التأثير أكثر مما ينبغي .

تاسو : هل تحسبيني ضعيفاً وطفلاً،

إلى حد أن تفسد هذه الحادثة عقلى ؟

إن ما حدث لا يؤذنى فى الصميم،

ولكن يؤذنى ما يعنيه بالنسبة لى .

دعى حسادى وأعدائى يفعلون ما يشاؤون!

فالميدان خال ومتسع لهم .

ليونورا : إنك ترتاب بغير حق فى الكثيرين،

وقد استطعت أن أقتنع بنفسى بهذا،

وأنطونيو نفسه لا يعاديك كما تتوهم .

إن النزاع الذى حدث اليوم ...

تاسو : إننى أدعه جانباً، وأكتفى بالنظر إلى أنطونيو

كما كان قديماً، وكما هو الآن .

كانت تضايقتى منه دائماً حكمته الجامدة

وحبه لتمثيل دور المعلم على الدوام .

بدلاً من أن يبحث إن كان عقل المستمع إليه،

قد اهتدى بنفسه إلى الطريق الصحيح،

تجدينه يعلمك ويعظك بأشياء
تحسين بها أفضل منه وأعمق،
ولا يستمع إلى كلمة واحدة تقولونها
بل يسيء فهمك على الدوام .
هكذا يساء فهمك، يساء فهمك من مغرور،
يعتقد أنه يستطيع أن يتجاهلك بابتسامته !
أنا لم أبلغ من العمر ولا من الحكمة ما يجعلنى
أكتفى بالصبر وأرد عليه بالابتسام .
لم يكن من الممكن أن نستمر على هذه الحال،
وكان لابد أن نتصادم فى وقت قريب أو بعيد،
ولو تأخر الأمر لازداد سوءاً .
لست أعترف إلا بسيد واحد، هو السيد الذى
يطعمنى.
إننى أخضع له عن طيب خاطر، ولست أريد سيئاً
سواه .
أريد أن أكون حراً فى تفكيرى وإبداعى،
فالعالم يضع لأفعالنا ما يكفى من القيود .
ليونورا : إنه كثيراً ما يتكلم عنك بالتقدير والاحترام .
تاسو : تريدين أن تقولى بالحيلة والاحتراس، فى براعة
وذكاء .
وهذا هو الذى يغيظنى؛ ذلك لأنه يعرف

كيف يتلاعب بالألفاظ ويتحكم فيها
بحيث يصبح الثناء على لسانه هجاءً،
وبحيث لا يجرحك شىء كما تجرحك
كلمة ثناء تخرج من فمه .

ليونورا : وددت يا صديقى لو سمعت ما يقوله عنك،
وعن الموهبة التى أثرتك بها الطبيعة الخيرة .
إنه يحس بالتأكد من أنت وماذا تملك
وهو يقدره كذلك حق التقدير .

تاسو : أه صديقى ! إن الوجدان الذى لا يحب إلا ذاته
لا يمكنه أن يتخلص من عذاب الحسد الخالق .
مثل هذا الرجل قد يستطيع أن يغفر لغيره
الثروة والمكانة والجاه، لأنه يقول لنفسه :
أنت تملك هذا كله، وتستطيع أن تملكه إن شئت،
وإن أصبرت وكان الحظ فى جانبك .
أما هذا الذى تمنحه الطبيعة وحدها،
هذا الذى لا يستطيع الجهد ولا التعب أبداً أن يدركه،
ولا الذهب أو السيف أو الذكاء أن يغتصبه،
فذلك ما لا يمكنه أن يغتفره .

أتقولين إنه لا يحسدنى على هذه الموهبة ؟
هو الذى يظن أنه إذا أجهد عقله البليد
استطاع أن ينتزع اللحظة من ربات الفنون؟

وإذا جمع أفكاراً من بعض الشعراء
ظن أنه قد أصبح شاعراً ؟
لا، إنه قد يسلم لى برضاء الأمير،
الذى يود لو يستطيع أن يقصره على نفسه،
ولكنه لن يسلم لى بالموهبة التى أنعمت بها
ربات السماء على الشاب اليتيم المسكين .
ليونورا : أه ! ليتك ترى الأمور بوضوح كما أراها
إنك تخطئ الظن به، فليس فى الحقيقة كما تراه .
تاسو : إن كنت أخطئ الظن به، فما أحبُّ هذا الخطأ
إلى نفسى !
إننى أعدده ألد أعدائى، ولن يعزىنى الآن
أن أخفف من نقمتى عليه . من الحمق أن يكون
الإنسان
منصفاً فى كل شىء؛ إن معناه أن يدمر نفسه بنفسه .
هل ينصف الناس فى معاملتهم لنا ؟ لا . لا !
إن الإنسان بكيانه المحدود
فى حاجة إلى الإحساس المزدوج بالحب والكره .
ألا يحتاج إلى الليل حاجته إلى النهار ؟
وإلى النوم كما يحتاج إلى اليقظة ؟
لا . لا بد من اليوم أن أجعل هذا الرجل
موضوعاً لكرهى العميق؛ ولا شىء يستطيع

أن ينتزع منى لذة الإحساس بكرهه

وإساءة الظن به على مر الأيام .

ليونورا : إن كنت تريد الإصرار على هذا الرأي

فلمست أدري، يا صديقى الغالى،

ما الذى يدعوك إلى البقاء فى البلاط .

إنك تعلم منزلته فيه .

تاسو : وأعلم، يا صديقتى الجميلة، منذ عهد طويل

أنتنى أصبحت هنا شيئاً يمكن الاستغناء عنه .

ليونورا : لست كذلك، ولا يمكن أبداً أن تكون !

إنك تعلم كم يحب الأمير، وكم تحب الأميرة أن

تعيش معهما؛

وإذا جاءت شقيقتكما التى تعيش فى أوربينو

فهى تجيء من أجل شقيقتها كما تجيء من أجلك .

إنهم جميعاً يضمرون لك الخير،

ويثقون فىك ثقة بغير حدود .

تاسو : أه يا ليونورا ! أى ثقة هذه !

هل تحدث معى مرة بكلمة واحدة فى شئون الدولة،

بكلمة واحدة جادة ؟

كانت كلما عرضت مسألة فى وجودى

راح يستشير فيها شقيقته وبقيّة الحاضرين

ولا يسألنى رأى أبداً . إنه لا يفتأ يقول .

أنطونيو قادم ! لابد أن تبلغوا أنطونيو !

اسألوا أنطونيو !

ليونورا : أنت تتهم، حيث ينبغي عليك أن تشكر .

إنه إن كان يحب أن يترك لك حريتك المطلقة،

فذلك لأنه يكرمك بقدر ما يستطيع .

تاسو : بل يتركني على راحتى، لاعتقاده بأننى لا أفيد

فى شىء .

ليونورا : لا يمكن أن تكون عديم الفائدة، لأن راحتك هى

مصدر قوتك .

ها أنت منذ وقت طويل ترعى الهم والضيق

فى قلبك، كما يفعل الطفل المدلل الحبيب .

لقد طالما فكرت فى الأمر وعدت للتفكير فيه :

على هذه الأرض الجميلة، التى يبدو كأن الحظ

اختارها لك،

لا يمكن أن تنمو مواهبك أو تزدهر . أه يا تاسو !

هل أشير عليك ؟ هل أجروء أن أقول لك ما فى نفسى ؟

إن عليك أن تباعد !

تاسو : لا تترفع، يا طبيبى العزيز، بالمريض !

ناوله الدواء حتى ولو كان مرأ

اسألى نفسك، يا صديقتى الحكيمة الطيبة،

إن كان يمكن أن يشفى !

إنى أرى كل شىء بنفسى . وا أسفاه ! لقد فات
الأوان !

أستطيع أن أغفر له، أما هو فلن يغفر لى .
وهم محتاجون إليه، أما أنا فلا يحتاج إلى أحد .
وهو ذكى، وأنا لست على شىء من الذكاء .
وهو يؤذيني، وأنا لا أحب ولا أقوى على رد أذاه .
أصدقائى يتفاوضون عما يجرى، وبعيون أخرى يرونه .
إنهم لا يبدون أى مقاومة، حين كان ينبغى عليهم
أن يكافحوه .

أعتقدين أنه علىّ أن أذهب ؟ أنا نفسى أعتقد هذا .
الوداع إذن ! - وسوف أصبر على هذا الامتحان
لقد تخليت عنى، فلأجد القوة والشجاعة
التي تعيننى على أن أتخلى بدورى عنكم !

ليونورا : أه ! إن الإنسان يميز على البعد فى نقاء
ما يضل عقولنا على القرب .

ربما استطعت حينئذ
أن تعرف الحب الذى كان يحيط بك من كل جانب،
وربما استطعت أن تقدر قيمة الوفاء
الذى يصدر عن قلوب الأصدقاء الخالصاء
وكيف أن العالم الواسع لا يغنى
عن أولئك الذين وجدوا الطريق إلى قلبك .

تاسو : هذا ما سوف نراه ! فأنا أعرف العالم منذ الشباب
وأعرف كيف يسهل عليه أن يتركنا وحيدين عاجزين
ويواصل طريقه فى غير اكتراث
كما تفعل الشمس والقمر وبقية الآلهة !
ليونورا : إذا أنصتْ إلىَّ يا صديقى،
فلن تكرر التجربة الحزينة أبداً .
إن كان لى أن أشير عليك
فاذهب أولاً إلى فلورنسا
حيث تتلقاك صديقة أحر لقاء .
لا تقلق ! فأنا نفسى هذه الصديقة
سأرحل فى خلال أيام
لألقى زوجى هناك، وليس شىء أحب إليه أو إلىَّ
من أن نراك بيننا
لن أقول لك شيئاً، فأنت تعرف بنفسك
ومن هو الأمير الذى ستعيش بقربه،
ومن هم الرجال والنساء الذين ترعاهم
هذه المدينة الجميلة بين ضلوعها .
ألا تقول شيئاً ؟ فكر فى الأمر ! وصمم على رأى !
تاسو : يجذبني ما تعرضينه علىَّ، ويتفق كل الاتفاق
مع الرغبة التى أكتمها فى نفسى؛
غير أنه شىء جديد علىَّ :

أرجوك أن تتركى لى فرصة التفكير

وسوف أستقر على رأى عن قريب .

ليونورا : سأنذهب وفى نفسى أجمل الآمال

من أجلك، ومن أجلنا، ومن أجل هذا البيت .

فكر فى الأمر، وإذا أحسنت التفكير

فسوف يتعذر عليك أن تجد خيراً منه .

تاسو : شىء واحد، يا صديقتى العزيزة !

خبرينى، ما هو إحساس الأميرة نحوى ؟

هل غضبت على ؟ ماذا قالت ؟

هل اشتدت فى لومى ؟ كوني صريحة معى .

ليونورا : كان من السهل عليها أن تلتمس العذر لك، لأنها

تعرفك .

تاسو : هل فقدت تقديرها لى؟ تكلمى بغير تملق .

ليونورا : رضا النساء لا يفقده الإنسان بهذه السهولة .

تاسو : وإذا رحلت، فهل تتركنى أمضى وهى راضية ؟

ليونورا : لا شك فى هذا، إذا عرفت أن الرحيل فى صالحك .

تاسو : ألن أفقد عطف الأمير ؟

ليونورا : تستطيع أن تطمئن إلى كرمه .

تاسو : وهل نترك الأميرة فى هذه الوحدة ؟

أنت سترحلين، وأنا، على قلة شأنى،

أعرف مع ذلك أن لى مكانة فى عينيها .

ليونورا : إننا نظل ننعم بصحبة الصديق

ما دمنا نعلم أنه على البعد سعيد .

سيسير كل شيء على ما يرام، فأنا أراك سعيداً

ولن ترحل سائطاً عن هذا المكان .

الأمير هو الذى أمر بهذا، وأنطونيو سيسعى إليك .

وهو يلوم نفسه على المرارة التى جرح بها إحساسك

أتوسل إليك أن تستقبله بغير جفاء .

تاسو : إننى أستطيع أن أواجهه فى كل الأحوال .

ليونورا : ولتوقفنى السماء، يا صديقى العزيز،

أن أفتح عينيك قبل أن ترحل،

لأريك أنه ليس فى الوطن كله إنسان

يضطهدك أو يكرهك أو يتأمر عليك !

إنك تخطئ حقاً ! وكما تؤلف الشعر لتسعد الآخرين

أراك الآن - ويا للأسف ! - تؤلف نسيجاً غريباً من

الأوهام

لتؤذى به نفسك . أريد أن أفعل كل ما أستطيع

لكى أمزق هذا النسيج، حتى تسير حراً

على طريق الحياة الجميل .

وداعاً ! وأنتظر منك رداً سعيداً .

المشهد الثالث

تاسو : (وحده) إذن فهذا هو الآن واجبي؟

أن أعرف أنه لا أحد يكرهني، ولا أحد يضطهدهني،

وأن المكر كله والدسائس الخفية كلها؛

إنما هي من نسيج خيالي !

أن أعترف بأنني أخطأت

وأنتني أظلم كثيرين

لا يستحقون مني هذا الظلم !

وهذا في الوقت الذي يتجلى فيه

حقى المطلق وخيانتهم الدنيئة

واضحة أمام وجه الشمس !

على أن أشعر عميق الشعور

بأن الأمير يفتح لي صدره ويهبنى رضاه

ويغدق علىّ دون حساب عطاياه

في حين أن أعدائي يستغلون ضعفه

فيعكرون نظرتة إليّ، ويقيدون بالطبع يديه !

هو لا يستطيع أن يرى أنه مخدوع،

وأنا لا أستطيع أن أثبت أنهم خادعون،
وعلى أن ألزم الصمت، لا بل أنسحب من الميدان
لكى يخدع فى هدوء
ويضللوه على هواهم !
ومن الذى يقدم لى النصيحة ؟
من الذى يلح على فى رفق وإصرار وذكاء ؟
إنها ليونورا نفسها، ليونورا سانفيتاله
الصديقة الرقيقة ! أه . إننى أعرفك الآن !
ما الذى جعلنى أصدق شفقتها !
لم تكن أمينة حين جاءت تؤكد لى
إخلاصها ورقتها بكلماتها المعسولة !
لا، لقد كانت وستظل خبيثة القلب،
تتسلل بخطى خافتة بارعة لتتقرب منى .
كم من مرة خدعت نفسى بنفسى فيها !
وما خدعنى فى الحقيقة إلا الغرور .
كنت أعرفها ولكننى كنت أداهن نفسى،
وأقول لها : شكذا تعامل غيرك،
ولكنها مدت صريحة ووفية .
الآن أراها بوضوح، وأراها بعد فوات الأوان :
حين كنت أتمتع بالخطوة عند الأمير، كانت
تتقرب منى

وتبدى رقبتها لى، أنا المحظوظ.
وما كدت أهوى، حتى أدارت ظهرها
عندما تنكر الحظ بدوره لى .
وها هى تقبل الآن، أداة فى يد عدوى
تتسلل نحوى وتصفّر أنغامها الساحرة كالحية الصغيرة،
كم كانت تبدو رائعة ! أروع من كل وقت مضى ؟!
وما أعذب كل كلمة كانت تخرج من شفيتها !
ومع ذلك فلم يستطع النفاق طويلاً
أن يخفى عنى نيتها الخبيثة . على جبهتها
كنت أقرأ بوضوح عكس ما كانت تقوله شفاتها .
فسرعان ما أحس بمن يبحث عن الطريق إلى قلبى
دون أن يكون صادقاً من قلبه .
أعلى أن أبتعد ؟ أن أذهب إلى فلورنسا بأسرع ما
أستطيع ؟
ولكن لماذا أذهب إلى فلورنسا ؟ إننى أرى الأمر
بوضوح .
هناك يحكم بيت الميديشى الجديد،
صحيح إنهم لا يجهرون بالعداء لـ «فرارا»
ولكن الحسد الصامت يفرق
بين القلوب النبيلة بيده الباردة .
وإذا حدث أن تلقيت من أولئك النبلاء

ما يدل على رضاهم السامى على
- وذلك ما أتوقعه عن يقين.
فما أسرع ما سيحاول رجل البلاط
أن يثير الشك فى ولائى وعرفانى
وسهل أن يتم له هذا .
نعم، أريد أن أذهب، ولكن لا كما تريدون؛
أريد أن أمضى بعيداً، وأبعد مما تتصورون .
وماذا أفعل هنا ؟ من الذى يحرص على ؟
آه ! لقد فهمت كل كلمة تصيدتها من شفتى ليونورا !
رحت أحس بمعناها، مقطّعاً، بعد مقطع
وأعرف الآن تماماً، ما تفكر الأميرة فيه .
أجل! أجل ! كل هذا حق، فلا تيأس !
«ستتركنى أرحل وهى راضية
إذا عرفت أن ذلك فى صالحى»
لو أنها أحست بعاطفة فى قلبها
ستدمر سعادتى وتدمرنى !
الموت أحب إلى من هذه اليد،
التي تتخلى عني فى برود وجمود .
سأرحل ! فحاذر الآن أن تنخدع
بالصداقة والطيبة . ولن يقوى أحد على خداعك،
ما دمت لا تخدع نفسك .

المشهد الرابع

(أنطونيو - تاسو)

أنطونيو : ها أنا يا تاسو قد جئت لأتكم معك،
إن أردت واستطعت أن تستمع إليّ فى هدوء .
تاسو : إن الفعل، كما تعلم، محرم عليّ؛
فخليق بى الآن أن أنتظر وأسمع .
أنطونيو : إننى ألقاك هادئاً، كما كنت أتمنى
وأحب أن أتحدث إليك بقلب مفتوح .
وأبدأ فأنزع عنك باسم الأمير
القيد الواهى الذى بدا أنه يقيدك .
تاسو : التعسف هو الذى قيدنى، وهو الذى يفك الآن قيدي .
إننى أقبل ما تعرضه عليّ، ولن أطلب بالتقاضى .
أنطونيو : إذن دعنى أتكم الآن عن نفسى،
ربما جرحتك كلماتى
جرحاً كان أعمق وأبعد من أن أحس به .
كنت فى ذلك الحين معذب القلب بالأحزان .

على أن كلمة واحدة مهينة
لم تغفلت من شفقتي بلا تدبر :
ولن تجد فيها كرجل نبيل ما تتأثر له
ولن تبخل كإنسان عليها بالغفران .

تاسو : لن أبحث الآن إن كانت الإهانة
أو كان السب أشد إيذاءً ؟
فتلك تنفذ إلى النخاع، وهذا يخدش الجلد .
إن سهم السب يعود فيصيب
من ظن أنه أصاب غيره بالجراح؛
والسيف الذى يجد اليد التى تحسن تسديده،
من السهل أن يرضى رأى الآخرين.
أما القلب المهان فمن العسير أن يجد الشفاء .

أنطونيو : الآن أرى من واجبى، أن ألح عليك وأقول .
لا ترجع إلى الوراء، وحقق رغبتى،
التي يريدها منك، كذلك الأمير .

تاسو : أنا أعرف واجبى، وسوف أطيع .
ولقد صفحت، بقدر ما أستطيع .
إن الشعراء يحكون لنا عن رمح
يستطيع بلمسه الرقيق
أن يشفى الجرح الذى أصابه^(١)

(١) إشارة إلى إحدى الخرافات الإغريقية، التى تقول إن الملك «تليفوس» الذى أصابه رمح أخيل فجرحه
لا يمكن أن يشفى حتى يلمسه هذا الرمح مرة أخرى

إن لسان الإنسان يملك هذه القدرة؛

ولن أجعل الحقد يغلق دونها فؤادى .

أنطونيوس : أشكرك وأرجوك أن تضع رغبتى

فى خدمتك على الفور موضع الاختبار .

قل لى : هل أستطيع أن أؤدى لك خدمة ؟

إننى أرحب بهذا كل الترحيب

تاسو : إنك تقدم لى ما كنت أتمناه .

لقد أعدتْ لى حريتى، وأرجوك

أن تعطينى القدرة على استخدامها .

أنطونيوس : ماذا تقصد؟ أوضح ما تقول .

تاسو : أنت تعلم أننى انتهيت من قصيدتى

ولكنها لا تزال بعيدة عن الكمال .

لقد سلمتها اليوم للأمير

وكنت أرجو أن أشفعها بالتماس .

إن عدداً كبيراً من أصدقائى

مجتمعون اليوم فى روما

وقد كتبوا لى على حدة

برأيهم فى بعض الفقرات،

استطعت أن أفيد بكثير من هذه الآراء،

ولكن لا يزال الكثير فيما يبدو لى بحاجة إلى التفكير

ولست أحب أن أغير فى مواضع كثيرة،

قبل أن ألقى منهم مزيداً من الإقناع .
ولابد من وجودى لأحل عقدة بالحديث.
فكرت اليوم أن أطلب هذا من الأمير :
غير أنني لم أجد الفرصة سانحة؛
وليس من حقي الآن أن أتجرأ بالسؤال
لهذا أرجو أن أحصل على هذه الإجازة عن طريقك .
أنطونيو : لست أرى من العقل أن تبتعد الآن
بعد أن أنجزت عملك الذى يرضى عنك الأميرة
والأمير .
إن يوم الرضا كيوم الحصاد
إذا نضجت الثمار كان على الإنسان أن يعمل .
ولو ابتعدت الآن، فلن تكسب شيئاً
بل ربما خسرت ما كنت قد كسبت .
إن الحاضر إلهة قوية وقادرة
فتعلم أن تعرف تأثيرها، وابق هنا !
تاسو : لست أخاف شيئاً، فألفونس نبيل،
وقد كان دائماً كريماً معى؛
وما أرجوه منه أحب أن أتاله من قلبه فحسب،
ولست أحب أن أتسول رضاه؛
لا أريد أن آخذ منه شيئاً
قد يندم لأنه أعطانى إياه .

أنطونيوس : لا تطلب منه إذن أن يسمح لك بالرحيل؛
إنه لن يفعل ذلك إلا كثرهاً
وأخشى ألا يفعله على الإطلاق .
تاسو : سيرضى إذا عرف الإنسان كيف يرجوه
ولن يستطيع هذا، إذا شئت، سؤالك .
أنطونيوس : ولكن قل لى : ما هى الحجج التى أقدمها إليه ؟
تاسو : دع كل مقطع من قصيدتى يعبر لك عنها !
إن ما أردته جدير بالحمد والثناء
وإن ظل الهدف أبعد من أن تدركه قواى .
إننى لم أبخل عليها بالجهد والعناء .
كم من نهار جميل مشمس،
وكم من ليلة عميقة هادئة
وهبتها لهذه الأغنية التقية .
كنت أرجو، على تواضع حالى، أن أقترب
من أولئك المعلمين الكبار القدماء،
وتجاسرت أن أوقظ المعاصرين الأحياء
من نومهم الطويل لينهضوا بأعمال البطولة
ويشاركوا مع الجيش المسيحى العظيم
فى أمجاد الحرب المقدسة وأخطارها .
فإن استطاع نشيدى أن يوقظ أفضل الرجال
فلا بد كذلك أن يكون جديراً بهم .

إننى أدين لألفونس بما فعلت؛
وأحب الآن أن أشكره على إتمامه .
أنطونيو : ولكن الأمير هنا، ومعه كثيرون
يستطيعون أن يهدوك كما يفعل أهل روما .
أتمم قصيدك هنا، فهنا المكان الذى يلائمه .
فإن أردت التأثير على الناس، فأسرع بعدها إلى روما .
تاسو : كان ألفونس أول من بعث فى الحماس للقصيدة،
وإذا لم أجد حكما سواه، فسوف أستمع يقينا إلى
نصيحته .
أما رأيك، ورأى الحكماء الذين جمعهم البلاط
فتأكد من أننى سأعرف قدره وقيمه
عليكم أن تقرروا إن كان أصدقائى
لم ينجحوا فى إقتناعى بالسفر إلى روما .
ولكن لا بد لى أن أراهم .
إن جونزاجا قد ألف المحكمة التى ينبغى على
أن أقدم نفسى إليها، وأست أطيع الانتظار .
فلا مينيوى نوبيلي، أنجيليودا بارجا،
أنطونيانو وسبيرون سبيروني^(١) ،
لا شك أنك تعرفهم جميعاً .

(١) أسماء شعراء إيطاليا عرفهم جوته من كتاب سيراسى «مؤرخ حياة تاسو» الذى أشرت إليه فى المقدمة

يا لها من أسماء رائعة ! تبعث الثقة
كما تشيع الخوف فى روحى،
التي ستخضع لرأيهم عن طيب خاطر .
أنطونيو : أنت لا تفكر إلا فى نفسك وتنسى الأمير .
أؤكد لك أنه لن يوافق على رحيلك؛
وإذا فعل، فسيكون ذلك بغير رضا .
فهل تطلب منه مالاً يحب أن يعطيه ؟
وهل أمد يدي للتوسط فى شيء
لا أستطيع أنا نفسى أن أحبذه ؟
تاسو : أترفض أن تقدم لى الخدمة الأولى،
التي أريد أن أختبر بها الصداقة التي تعرضها على ؟
أنطونيو : إن الصداقة الحقّة هي التي تعرف
كيف ترفض فى الوقت المناسب،
وكم يجلب الحب من أضرار،
كلما استجاب لنزوة الصديق بدلاً من مصلحته .
يبدو لى أنك فى هذه اللحظة
تعد ما تتلهف عليه خيراً،
وتريد أن تحقق فى طرفة عين
ما تشتاق إليه نفسك .
إن من يخطئ ويضل الطريق،
يضع العنف والجموح

· مكان الحقيقة والقوة
اللتين يفتقر إليهما .
إن من واجبي، بقدر ما أستطيع
أن أخفف بالاعتدال من الغلواء
التي تؤذيك وتجنى عليك .
تاسو : طغيان الصداقة هذا، أعرفه من وقت طويل،
وهو عندي أشد ألوان الطغيان .
إن تفكيرك يختلف عن تفكيري
وهذا ما يجعلك تعتقد بأنه هو التفكير الصحيح .
إنني أعترف بأنك تريد الخير لي؛
فلا تطلب مني أن أسير على طريقك كي أفتش عنه .
أنطونيو : وهل تطلب مني أن أسعى في برود إلى أذاك
وأضرك عن اقتناع كامل وواضح ؟
تاسو : أحب أن أخلصك من هذا الهم !
فلن يصدني عن هدفى شيء مما تقول .
لقد أعدت إلى حريتي، وهذا الباب
الذي يؤدي إلى الأمير مفتوح أمامي .
أنت أو أنا ! إنني أترك لك الخيار .
الأمير ينوي السفر . وليست هناك لحظة نضيعها
في الانتظار .

اختر على وجه السرعة ! فإذا لم تذهب أنت، -

فسأذهب أنا إليه، وليكن ما يكون .

أنطونيو : دعنى أطلب إليك أن تترى قليلاً،

وتنتظر على الأقل حتى يعود الأمير،

لا تذهب اليوم إليه !

تاسو : بل سأذهب إليه الساعة، إن استطعت !

إن نعلى يلتهبان فوق هذا الرخام،

ولن تستريح روحى حتى يثور الغبار

ورائى على طريق الحرية . أتوسل إليك !

أنت ترى كم يتعذر على فى هذه اللحظة

أن أحسن الحديث مع مولاي،

أنت ترى - وكيف لى أن أخفى هذا ؟ -

إننى لا أستطيع فى هذه اللحظة أن أتحكم فى نفسى،

ولن تستطيع قوة على الأرض أن تسيطر على .

الأغلال وحدها هى التى تقيدنى الآن !

ليس ألفونس طاغية، فقد أعاد إلى حريتى .

وما أحب إلى نفسى أن أطيع أوامره

لولا أننى اليوم لا أستطيع !

دعونى أتمتع بحريتى اليوم فحسب

حتى أعود إلى نفسى ! وسوف لا أتأخر عن أداء

واجبى .

أنطونيوس : أنت تثير الحيرة فى نفسى . ماذا أفعل ؟

أرى الآن أن الخطأ يعدى .

تاسو : إن أردت منى أن أصدقك، إن أردت حقاً أن تعيننى

فأفعل ما أطلبه منك وما تستطيع

عندئذ يوافق الأمير على سفرى

دون أن أفقد عونه أو رضاه .

وسأحفظ لك هذا الجميل بالشكر والعرفان .

أما إن كنت تطوى فى صدرك حقداً قديماً،

أو كنت تريد أن تنفينى من هذا البلاط

وتجنى على سعادتى إلى الأبد

وتلقينى إلى العالم الشاسع بغير معين،

فابقَ على رأيك وقفْ فى طريقى !

أنطونيوس : ما دمت يا تاسو تريد أن أؤذيك،

فسوف أختار الطريق الذى اخترته بنفسك .

وستكشف النهاية عمن المخطئ منا والمصيب !

أنت تصر على الرحيل ! فأسمع رأيى الآن :

لن تدير ظهرك لهذا البيت، حتى يحن قلبك للرجوع،

ويدفعك عنادك على طريق الهروب.

العذاب والاضطراب والاكتئاب

تنتظرك فى روما،

وستخطئ الهدف هنا وهناك

على أننى لا أقول لك هذا لأنصحك؛
وإنما أتنبأ بما سيقع عن قريب
وأدعوك مقدماً، من هذه الساعة
أن تثق بى فى أسوأ الأحوال ،
وسأذهب الآن إلى الأمير
لأتكلم معه كما تريد .

المشهد الخامس

تاسو : (وحده) نعم ! اذهب الآن وأنت على يقين

من أنك أقنعتنى بما تريد .

سأتعلم أن أضع قناعاً على وجهى،

فأنت المعلم الكبير، وأنا التلميذ الذى يفهم

بغير عناء .

هكذا تضطربنا الحياة أن نتظاهر،

لا بل أن نكون كأولئك الذين

كان فى مقدورنا أن نحتقرهم بجسارة

وكبرياء .

الآن تتضح لى كل الأعيب البلاط !

أنطونيو يريد أن يطردنى ولا يريد

أن يظهر كأنه هو الذى يطردنى .

إنه يمثل دور المتسامح الحكيم

حتى يبين للناس أننى مافون ومريض .

ويفرض وصايته علىّ، كى يجعلنى طفلاً

بعد أن أعجزه أن يجعل منى عبداً .

وهكذا ينشر الضباب حول جبهة الأمير
ويعكر نظرة الأميرة إلى .
لا بد من التمسك بى، هذا ما يفكر فيه
فقد أهدتنى الطبيعة موهبة جميلة،
لكنها، ويا للأسف، قد قرنت الهدية
بألوان من الضعف التى أساءت إلى :
بالغرور الجامح، والحساسية المفرطة
والشعور المتجهم العنيد .
لا حيلة لنا، فهكذا صورّ القدر هذا
الرجل الفريد،
وعلينا الآن أن نقبله على علاته ،
ونصبر عليه، ونحتمله، وليس ببعيد،
أن يأتى اليوم الجميل الذى نستمتع فيه
بالبهجة التى لم نكن ننتظرها منه .
وبعد هذا فلنترك له أن يعيش
أو فلندعه كما ولد يموت !
أهذا هو ألفونس وعزمه المكين،
الذى يرغب الأعداء بالشجاعة ويحمى
الأصدقاء بالوفاء ؟
أأستطيع الآن أن أتعرف عليه،
وهو يعاملنى هذه المعاملة ؟

أجل ! إننى أعرف الآن شقائى كله !
هذا هو قدرى الذى يجعل كل إنسان
يتغير نحوى فى نفسٍ واحد ولحظة واحدة .
بينما يظل مع غير الصديق الوفى الأمين .
ألم يكن ظهور هذا الرجل كافياً ،
ليحطم مصيرى كله فى لحظة واحدة ؟
أليس هو الذى هدم سعادتى
من أساسها ولم يترك حجراً على حجر ؟
هل كان حتماً أن أقاسى هذه التجربة ،
هل كان حتماً أن أقاسيها اليوم ؟
نعم . كان الجميع يتدافعون علىّ
والآن يتخلى عنى الجميع ،
وكل من كان يحاول أن يشدنى إليه
وكل من كان يريد أن يستأثر بى
يصدنى الآن عنه ويتجنب طريقى .
وما السبب فى هذا ؟ أترجح كفته فى الميزان
كل ما كنت أحظى به من حب وتقدير ؟
نعم ! كل شىء يهرب الآن منى .
حتى أنت ! حتى أنت ! يا أميرتى المحبوبة
تتخلين الآن عنى !
إنها لم ترسل إلىّ فى هذه الساعات الكالحة

بعلامة واحدة تنبئ عن رضاها .
أكنت أستحق هذا منها ؟ يا قلبى المسكين !
يا من فطرت على عبادتها !
كنت لا أكاد أسمع صوتها، حتى ينفذ
إلى قلبى شعورٌ لا سبيل للتعبير عنه !
ولا أكاد ألمحها حتى يظلم فى عينيَّ
ضوء النهار الوضاح؛
تسحرنى عيناها وشفتاها،
قدماى لا تعودان تحملانى،
وأهيب بكل ما فى من قوة الروح
كى أتماسك أمامها ولا أسقط عند قدميها،
وما من شئ ينقذنى من هذا الدوار .
تَنَبَّأتُ يا قلبى ! وأنت يا عقلى المنير
لا تدع الضباب يلفك ويغشاك !
نعم ! هى أيضاً ! أقولها بلسانى ؟ ولا أكاد
أصدق !
بل إننى أصدق، وأريد لو أخدع نفسى
بالكتمان .
حتى هى ! حتى هى ! أعذرهما من كل قلبك
ولكن لا تُخَفِ الحقيقة عن نفسك .
حتى هى ! حتى هى !

أه من هذه الكلمة، التي كنت أريد
أن أرتاب فيها،
ما دام تردد فى صدرى نفس من الإيمان،
أجل، هذه الكلمة، إنها خاتم القدر
الذى يحفر رسمه على إطار من حديد
فى لوحتى التى امتلأت سطورها بالعذاب
الآن سلبت إلى الأبد من كل قوة.
وكيف أحارب، وهى تقف فى جيش
أعدائى ؟
وكيف أصبر، وهى لا تمد يدها إلى من
بعيد ؟
ونظرتها لا تستجيب لدعائى ؟
لقد تشجعت على التفكير، واستطعت أن
ترفع صوتك،
وها هو الأمر حق، وبأسرع مما كنت
تخشى !
يكفيك قبل أن يقبض اليأس على عقلك
ويمزقه بمخالب من حديد،
أن تشكو القدر المرير
وتكرر لنفسك : حتى هى ! حتى هى !

الفصل الخامس

بستان

المشهد الأول

(ألفونس - أنطونيو)

أنطونيو : ذهبت، كما أشرت، للمرة الثانية
أبحث عن تاسو، وها أنا قادم من عنده،
بذلت جهدي لأقنعه، لا بل ألححت عليه،
غير أنه لا يريد أن يحيد عن رأيه
ويتوسل إليك أن تأذن له
بالسفر إلى روما لفترة قصيرة
ألفونس : لا أريد أن أخفى عنك سخطي،
وأفضل عندي أن أصارحك به،
على أن أكتمه وأزيد حديثه .
أريد أن يسافر ؟! حسنا . لن أمنعه،
أريد أن يتركنا ويذهب إلى روما ؟ ليكن له ما يشاء !
على ألا يأخذه سكيبيو جونزاجا

أو ينتزعه المديشى البارع منى^(١) !
إن ما جعل إيطاليا بهذه العظمة
هو أن كل أمير ينافس جاره
فى الاستئثار بالموهوبين والانتفاع بهم .
والأمير الذى لا يجمع المواهب حوله
هو عندى كالقائد بلا جيش؛
ومن لا يهزه صوت الشعر
فهو متوحش، مهما علا شأنه .
لقد اكتشفت شاعرى واخترته بنفسى
وأنا أعتز به واحداً من رعايى
فهل أتركه إلا مرغماً
بعد أن فعلت كل ما فعلت ؟
أنطونيو : إننى فى حرج، لأننى أحمل
أمامك ذنب ما حدث اليوم؛
أنا أيضاً أريد أن أعترف بخطئى
الذى لا يغتفره إلا عفوك .
غير أننى سأظل بلا عزاء
إذا تصورت أننى لم أفعل
كل ما استطعت لأصاله .

(١) المقصود هو الكاردينال فرناندوى مديشى شقيق أمير توسكانا الأعظم

آه لا تحرمنى من نظرتك الحنون
حتى أتماسك وأستعيد الثقة فى نفسى .

ألفونس : لا يا أنطونيو، فلتهدأ نفسك

فأنا لا ألقى عليك أى ذنب؛

أنا أعرف تفكير هذا الرجل خير المعرفة
وأعلم تمام العلم ما فعلت من أجله،
وكيف ترفقت به وتسامحت معه،
ونسيت ما كان من حقى أن أطلبه منه .
قد يستطيع الإنسان أن يسود الكثير،
لكنه يحتاج للزمن كما يحتاج للمحن والخطوب .
لكى يتمكن من السيادة على نفسه .

أنطونيو : أليس من الإنصاف أن يسأل الإنسان نفسه

حين يرى ما يفعله الآخرون من أجله
ماذا أستطيع أن أقدمه لمنفعتهم ؟
ومن ثقف عقله إلى هذا الحد،
وجمع العلوم من أطرافها،
وحصل ما فى طاقة الإنسان تحصيله
ألا يكون ملزماً أكثر من غيره
بالتحكم فى نفسه ؟
أليس عليه أن يفكر فى هذا ؟

ألفونس : كتب علينا ألا نذوق طعم الراحة !

فلا نكاد نفكر فى التمتع بها

حتى نصادف عدواً نختبر معه شجاعتنا

أو نرزق صديقاً نجرب معه صبرنا .

أنطونيو : هل تراه يحقق الواجب الأول على الإنسان،

الذى يفرض عليه أن يختار طعامه وشرابه،

ما دامت الطبيعة لم تقيده كما قيدت الحيوان ؟

ألا يضعف كما يضعف الأطفال

أمام كل ما يثير لعبه ؟

ومتى رآه أحد يمزج خمره بقليل من الماء ؟

إنه ينتقل من التوابل إلى الحلوى إلى المشروبات القوية

ليبتلعها فى نهم واحدة بعد الأخرى

ثم يشكو بعد ذلك من كآبة روحه،

واضطرام دمه وحدة طبعه

ويلقى اللوم على الطبيعة والقدر .

كم من مرة رأيته يجادل طبيبه؟

ويلقى الكلام فى مرارة وحمق؟

يكمأوشكت على الضحك، لو كان يضحك

ما يعذب الإنسان ويضايق غيره؟

إنه يقول فى قلق: «أشعر بهذا الألم»

ثم فى ضيق . «فيم تفاخر بفنك ؟ - أوجد لى العلاج» !

- ويرد الطبيب . «حسن ! فامتنع عن هذا وذاك»
- «لا أستطيع»
- «إذن فاشرب هذا الدواء»
- «لا . إن طعمه البشع يملؤنى بالاشمئزاز»
- «إذن فاشرب ماء»
- «أشرب ماء ؟ مستحيل ! إننى أخاف الماء كما يخافه مَنْ عضه كلب» .
- إذن فلا أستطيع أن أفعل لك شيئاً .
- وما السبب ؟
- لأن الداء سيجر غيره معه، وإذا لم يقتلك فسوف يزيد عذابك كل يوم .
- شىء جميل ! وما الفائدة إذن من أن تكون طبيباً ؟
- إنك تعرف دأئى، ومن واجبك أيضاً أن تعرف الدواء وتحبب طعمه إلىّ، حتى لا أضطر إلى العذاب لكى أتخلص من العذاب .
- أراك تبسم، أليس هذا هو الذى يحدث ؟
- ألم تسمعه بنفسك من فمه ؟
- ألفونس :** كثيراً ما سمعته وغفرته له .
- أنطونيو :** حقاً إن حياة بعيدة عن الاعتدال تملأ نومنا بالكوابيس الثقالة،

وتسوقنا إلى الحلم فى وضح النهار .
حيثما ذهب، ظن نفسه محاطاً بالأعداء .
وظن أن كل من يعترف بموهبته يحسده،
وكل من يحسده يحقد عليه ويضطهده .
كم من مرة ضايقت بشكواه ؟
بالأقفال التى كسرت، والرسائل التى فتحت
والسم والخنجر ! وكل ما يطوف بخياله !
ولقد أمرت بالبحث، وبحثت بنفسك
فهل وجدت شيئاً ؟ لا أثر !
لا رعاية أمير تشعره بالأمان
ولا قلب صديق يرويه بالحنان .
ألمثل هذا، تريد الراحة والهناء ؟
أترجو لنفسك منه السعادة والصفاء ؟
ألفونس : لو كنت أريد منه منفعة قريبة
لكان لك الحق فيما تقول يا أنطونيو !
أليس فى صالحى أننى لا أنتظر
منفعة عاجلة مباشرة ؟
إن كل شىء يخدمنا على طريقته؛
ومن أراد أن يستخدم الكثير
فليستخدم كل شىء بما يتفق وطبيعته

وبهذا تتحقق له المنفعة .
هذا هو الدرس الذى علمنا إياه آل مديشى،
وهذا ما برهن عليه البابوات بأنفسهم .
كما من عبقرى رعاة هؤلاء الرجال
بالسماح والصبر وطول الأناة؟
وكان يظن أنه فى غنى عن نعمتهم
ومع ذلك لم يستطع أن يحيا دونها !
أنطونيو : ومن يجهل هذا يا أميرى ؟ إن التعب فى الحياة
هو وحده الذى يعلمنا تقدير عطاياها .
لقد نعم بالكثير حين كان لا يزال صغيراً
فلم يقنع بالمتع القليلة .
ليته يعرف أولاً كيف ينعم
بما تغدقه الأيدى السخية عليه :
إذن لاستطاع أن يحزم قواه
ويشعر بالرضا خطوة خطوة .
إن الرجل النبيل الذى لا يملك ثروة
يستطيع أن يبلغ أسمى أمانيه
إذا جعله أمير عظيم من رفاقه
وحرره بيده الرقيقة من الضيق .
فإذا حباه، كذلك ثقته ورضاه

واصطفاه بجواره على كل من عداه،
 فى الحرب والحكم والحديث
 فقد يبدو لى أن الرجل المتواضع
 يستطع أن يشكر حظه فى صمت .
 وتاسو يزيد على هذا كله
 أروع ما يمكن أن يحظى به شاب .
 فالوطن يكرمه ويعقد عليه الآمال .
 صدقنى إن قلت إن مزاجه الغريب
 يتقلب على مخدة حظه السعيد .
 ها هو قادم . فسرَّحه فى كرم
 ليلتمس فى روما أو نابولى أو حيث شاء
 ما يتفقدّه هنا، وما لن يجده فى غير هذا المكان
ألفونس : أريد أن يسافر أولاً إلى «فرارا» ؟
أنطونيو : بل يرغب أن يبقى فى «بلرجواردو»،
 ويكلف أحد أصدقائه أن يرسل إليه
 أهم ما يحتاجه فى رحلته .
ألفونس : بكل سرور . ستبادر شقيقتى بالعودة إلى المدينة
 مع صديقتها، وسأسبقهما على جوادى .
 وستلحق بنا بعد أن ترعى شئونه .
 مَرُّ الحاجب بأن يقوم بما يلزم
 ليبقى فى القصر إلى ما يشاء .

حتى يرسل أصدقائه إليه المتاع
وتصله الرسائل التي أحب أن أعطيها له
ليأخذها معه إلى روما . ها هو قادم
الوداع !

المشهد الثانى

(ألفونس - تاسو)

تاسو : (فى تحفظ) عطفك الذى طالما غمرتني به

يتجلى لى اليوم فى أبهى ضياء .

الاثم الذى ارتكبت فى جوارك

عن طيش، غفرته لى .

خصمى جعلته يمد يديه إلى

وتريد الآن أن تأذن لى

بالبعد قليلاً عن جوارك،

ويشاء مع ذلك قلبك الكريم

ألا يحرمنى من رضاه .

سأرحل عنك وملئى الثقة،

وأبعد عنك وكلى رجاء،

بأن غيابى هذا القصير

سيشفى هموم الفؤاد الكبير

أريد أن تسمو روحى من جديد

وأسعى على الدرب، الذى شجعتنى نظرتك الحنون
على السير عليه فى سعادة وجرأة،
لكى أعود جديراً بعطفك .

ألفونس : أتمنى لك الحظ السعيد فى رحلتك
وأرجو أن نراك بيننا من جديد
مبتهج النفس فى أطيب حال .
عندئذ ترد إلينا المكسب مضاعفاً
عن كل لحظة حرمتنا منها
سأعطيك رسائل لرجالى وأصدقائى فى روما
وأرجو أن تعدهم جميعاً أصدقاء أوفياء،
أما أنا، فسوف أظل أنظر إليك
على البعد كصديق حميم .

تاسو : أنت تغمر بفضلك يا أمير
إنساناً يشعر أنه لا يستحقه،
ولا يكاد فى هذه اللحظة يستطيع
أن يعبر لك عن شكره .
وبدلاً من أن أقدم لك امتنانى
جئت أرفع إليك التماساً !
أنت تعلم كم أعتز بقصيدى،
لقد بذلت فيه الكثير ولم أبخل عليه
بجهد ولا عناء، ومع ذلك فلم يزل

أبعد بكثير عما أتمناه .
أريد أن أعود تلميذاً من جديد
هناك حيث لا تزال أرواح العباقر
تطوف في السماء وتؤثر على القلوب،
ربما تصبح أنشودتي جديدة باستحسانك .
أتوسل إليك أن تعيد إليّ الأوراق
التي يخجلني أن أعرف أنها بين يديك .

ألفونس : أتريد اليوم أن تسترد الهدية
التي أعطيتني في هذا اليوم نفسه ؟
دعني أتوسط بينك وبين قصيدك .
حاذر أن تفرط في الجهد والعمل،
فتؤذي الطبيعة الرقيقة التي تنبض في أبياتك،
ولا تنصت إلى النصائح التي تنهال عليك من كل
ناحية !

إن آلاف الأفكار التي تصدر عن أناس مختلفين
يناقضون بعضهم في الرأي والحياة،
يضمها الشاعر الذكي في كل واحد،
فلا يهاب أن يُغضب القليلين
ما دام سيفوز بالمزيد من رضا الآخرين .
ومع ذلك فلست أريد بهذا أن أقول
إنك لا تحتاج أن تمر عليها في هدوء،

فتهذب فيها هنا وهناك،
ولذلك أعدك الآن أن أعطيك
نسخة منها بعد وقت قصير .
أما المخطوطة فسأحتفظ بها،
لأستمتع بها مع شقيقتي .
فإذا رجعت إلينا بنسخة أكمل
فسوف تزيد متعتنا بها
وقد نلفتك إلى بعض الملاحظات
التي نبديها لك كأصدقاء .

تاسو : أتوسل إليك من جديد فى خشوع :

دعنى أحصل على هذه النسخة على وجه السرعة !
إن كيانى كله يعيش الآن فى هذا القصيد
وإذا قدر له أن يكون شيئاً، فليكن الآن !

ألفونس : إنى أحيى هذه الرغبة التى تملك عليك نفسك !

ومع ذلك، فمن واجبك يا عزيزى تاسو
أن تفرج عن نفسك بقدر ما تستطيع،
وتستمتع بالعالم الواسع قليلاً،
وتأخذ علاجاً ينقى دمك .

هناك يستعيد وجدانك الانسجام الجميل
ويعطيك ما لن تناله بالانفعال الكئيب .

تاسو : قد يبدو الأمر كذلك يا أميري
ولكنني بمجرد أن أنكبَّ على عملي
أحس بأنني صحيح معافى،
وأستمد من العمل قوة جديدة .
إنك تعرفني منذ وقت طويل،
وتعرف أنني أضيق بحياة الفراغ؛
إن الراحة هي آخر ما يريحني .
وهذا الوجدان، ويا للأسف، لم تهيئه الطبيعة،
ليطفو مرحاً على نهر الأيام
ويسبح في بحر الزمان الواسع .

ألفونس : كل ما تفكر فيه أو تفعله،
يغوص بك إلى أعماق نفسك !
كم من هاوية حفرها القدر حولنا؟
لكن أعمقها هنا في قلبنا!
وهي تجذبنا إلى التردى فيها .
أتوسل إليك أن تنتزع نفسك من نفسك !
وسترى أن ما ستفقده كشاعر ستكسبه كإنسان .

تاسو : عبثاً أحاول التحكم في هذا الدافع،
الذي يموج في صدري ليلَ نهار .
إنني إن توقفت عن الفكر والإبداع،
لم تعد الحياة في عينيّ حياة .

أُستطيع أن تمنع دودة الحرير
من أن تغزل النسيج، الذى يؤدى لموتها ؟
من قلبها تنتزع الخيط النفيس،
فلا تتوقف حتى تغلق الكفن على نفسها .
ليت إلهاً محسناً ينعم علينا،
بنصيب هذه الدودة، الذى تحسد عليه !
ليتنا نستطيع ذات يوم
أن نفرد الجناحين المشعين
فى وادى الشمس البعيد،
فى بهجة وبغير ميعاد .
ألفونس : استمع إلىّ ! إننى أرجوك
- وأنت الذى تضاعف للكثيرين بهجة الحياة -
أن تتعلم أنت نفسك، قيمة هذه الحياة
التي أغدقت عليك عطاياها بسخاء .
وداعاً ! وكلما أسرع بالرجوع
زدتنا فرحة بعودتك .

المشهد الثالث

تاسو : (وحده) تماسك يا قلبي، فأنت على الدرب الصحيح

المهمة عسيرة، إنها المرة الأولى

التي تجرب فيها أن تتنكر ولا تخيب .

ها أنت قد سمعت : لم يكن هذا قلبه

ولا الكلمات كما عهدتها كلماته .

لكأنى ما سمعت إلا صوت أنطونيوس .

أه كن على حذر ! فسوف تسمعه الآن

يأتيك من كل ناحية . تماسك . تماسك !

لم تبق غير لحظة وتترك الهدف .

من تعلم التنكر فى أواخر الحياة،

أنقذته سمعته الطيبة من العيون

فتعلم كيف تحذق فنونهم، وسيتم كل شئ على

ما يرام .

(بعد فترة صمت)

أنت تتباهى بالانتصار قبل الأوان ! ها هي قادمة

هناك !

الأميرة الرقيقة قادمة ! يا له من شعور !
إنها تدخل . والشك والسخط اللذان تجمعان في قلبي ،
يذوبان الآن في دموع الأحران .

المشهد الرابع

(الأميرة - تاسو - ثم يدخل الباكون قبل نهاية المشهد)

الأميرة : هل تفكر إذن فى أن تتركنا؟

أم تريد أن تبقى قليلاً فى بلرجواردو

حتى يأتى اليوم الذى ترحل عنا فيه

لفترة قصيرة، كما أتعشم يا تاسو؟

أتذهب إلى روما؟

تاسو : سأذهب أولاً إلى هناك،

فإذا أحسن الأصدقاء استقبالى كما أرجو،

فقد أستطيع أن أحشد صبرى وعنايتى،

لأضع اللمسة الأخيرة فى قصيدتى .

سأجد هناك رجالاً كثيرين،

يحق لهم أن يصفوا أنفسهم

بأنهم سادة فى كل الفنون .

ألا ينطق كل مكان فى تلك المدينة العظيمة؟

ألا يتحدث كل حجر إلى قلوبنا؟

وكم من ألف معلم صامت يشير إلينا
إشارة الصديق فى هيبة وجلال ؟
وإذا لم أستطع أن أكمل قصيدتى هناك
فأين إذن أستطيع أن أكملها ؟
بيد أنى، ويا للأسف، أحس من الآن
أننى لن أنجح فيما سأقدم عليه .
لا شك أننى سأغير فيها، لكننى لن أستطيع إتمامها
إننى أشعر الآن، أشعر بكل وضوح
أن الفن العظيم الذى يغذو الجميع،
وينعش العقل السليم ويقويه،
سوف يدمرنى ويطردنى بعيداً عنه .
أريد أن أهرب ! أريد أن أذهب الساعة إلى نابولى !
الأميرة : وهل يمكنك أن تخاطر بهذا ؟ إن حكم النفى
الذى نزل بك وبأبيك لم يُرفع بعد .
تاسو : أنت على حق فى تحذيرك، ولكننى فكرت فى المسألة
سأذهب إلى هناك متكرراً،
مرتدياً ثوب الحجاج أو الرعاة المساكين .
سأدخل المدينة خفية،
حيث يضيع الفرد فى زحام الألوף .
سأسرع إلى الشاطئ، حيث أجد هناك
قارباً يركبه أناس طيبون من مدينة سورنت،

وفلاحون عائدون إلى بيوتهم من السوق .
ذلك لأننى لا بد أن أسرع إلى سورنت
فهناك تعيش شقيقتى التى كنت وإياها
بالنسبة لأبونا كل العذاب والسرور .
سألزم الهدوء فى القارب، وأدلف إلى الشاطئ فى صمت
وأصعد فى حذر على الطريق المؤدى إلى بوابة المدينة
وهناك أسأل : أين تعيش كورنيليا ؟ دلونى على مسكنها
كورنيليا سير سالى ؟
وسأجد غازلة تبتسم لى وتدلنى على البيت والطريق .
وأواصل الصعود . وحولى الأطفال ينظرون مدهوشين
إلى الشعر المضطرب والوجه الغريب الحزين .
وأبلغ العتبة، فأجد الباب مفتوحاً، وأدخل .
الأميرة : افتح عينيك يا تاسو إذا استطعت،
وانظر إلى الخطر الذى تريد أن تهوى فيه .
لولا إشفاقى عليك لسألتك :
أمنُ النبيل أن تقول هذا الكلام ؟
أمنُ النبيل ألا تفكر إلا فى نفسك،
وكأنك لا تعذب قلوب الأصدقاء ؟
هل يخفى عليك رأى شقيقى فىك ؟
هل تجهل كيف تقدر شقيقتاى ؟
ألم تحس بهذا التقدير وتتأكد منه ؟

هل يتغير كل شىء فى لحظات قليلة ؟

تاسو ! إن كنت تريد أن تفارقنا

فلا تترك لنا الألم والعذاب .

تاسو : (يشيح بوجهه بعيداً) .

الأميرة : كم يعزى النفس حين يرحل صديق

فى رحلة قصيرة، أن نقدم له هدية صغيرة

ولتكن معطفاً جديداً وسلاحاً !

أما أنت فلا يستطيع الإنسان أن يهديك شيئاً

لأنك تطرح عنك كل ما تملكه فى نفور .

إنك تختار عباءة الحجاج وبردتهم السوداء

وعكازهم الطويل، وتتعمد أن تذهب إلى هناك

فى زى المساكين، وتسلب منا

ما لم تكن لتتمتع به إلا معنا .

تاسو : إذن فأنت لا تنبذيننى تماماً ؟

يا للكلمة العذبة، يا للعزاء الغالى الجميل !

دافعى عنى ! خذينى فى حماك '

دعيني هنا فى بلرجواردو، أو انقلينى إلى كونساندولى

أو إلى حيث تشائين !

ألا يملك الأمير من القصور الجميلة والبساتين

ما يحتاج إلى العناية طوال العام

ولا تكادون تقيمون فيه يوماً واحداً أو ساعة واحدة ؟

اختارى أبعدهما جميعاً، ذلك الذى لم تزوريه منذ
سنوات،

وقد يكون الآن مهجوراً، وأرسلينى إلى هناك !
دعينى هناك أهب حياتى كلها لكم !
كم أتمنى أن أتعهد أشجارك !
وأعطى فى الخريف أشجار الليمون بالألواح والقرميد
وألفها بعناية بأعواد القصب !
ستمد الأزهار الجميلة جذورها العريضة فى الأحواض
وسيبدو كل ممشى وكل خلوة فى أبهى زينة .

واتركى لى كذلك العناية بالقصر !
سأفتح النوافذ فى الوقت المناسب،
فلا تفسد الرطوبة اللوحات؛
والجدران المزدانة بمعجون المرمر،
سأنظفها بالريش الخفيف،
وستلمع الأرضية الخشبية وتتألق،
ولا يتزحزح حجر أو طوبة عن مكانهما،
ولا ينبت عشب فى أحد الشقوق !

الأميرة : لست أجد فى عقلى رأياً

ولا فى قلبى عزاءً لك أو لنا .
إن عينى تتلفتان حولى، لعل إلهاً
يمد إلينا يد المساعدة،

أو يدلنا على بلسم أو نبات شافٍ،
ينزل السلام على نفسك ويهدي نفوسنا .
إن أخلص الكلمات التي تخرج من الشفاه،
وهى الدواء الساحر، لم يعد لها تأثير .
لا بد أن أتركك تسافر،
ولكن قلبي لا يستطيع أن يهجرك .

تاسو : أيتها الآلهة ! إنها هى

التي تتكلم معك وتعطف على بؤسك !
ومع ذلك أسأت فى فهم القلب النبيل ؟
كيف استولى الضعف عليك،
وكيف قهرك اليأس وأنت منها قريب ؟
لا ! إنها هى ! وأنت أيضاً قد ولدت من جديد
تكلمى تكلمى ودعيني أستمّد
من بين شفّتك الأمل والعزاء !
لا تحرمينى من نصيحتك ! قولى ماذا أفعل ؟
لكى ينعم شقيقك بالعفو علىّ،
ولكى أكون جديراً بعفوك،
ولكى يسعدكم من جديد
أن تعدونى واحداً منكم
قولى لى !

الأميرة : إن ما نطلبه منك قليل،

ومع ذلك يبدو أكثر من الكثير .

يكفيك أن تترك نفسك لنا، وتطمئن لمودتنا .

نحن لا نريد منك إلا ما فى طاقتك،

إذا استطعت فحسب، أن ترضى عن نفسك .

أنت تسعدنا، حين تكون سعيداً

وتؤلم قلوبنا حين تهرب من السعادة .

وإذا كنت تجعلنا نفقد الصبر أحياناً

فلأننا نتمنى أن نساعدك، ونرى، ويا للأسف،

أن كل مساعدة لا جدوى منها،

ما دمت لا تريد أن تمسك بيد الصديق

التي تمتد إليك فى شوق ولا تصل إليك .

تاسو : ما زلت أنت التي رأيتها أول مرة

حين أقبلت على كالملاك الطاهر !

اغفرى للبشر الفانى نظرتة،

التي غشيت لحظات فلم تعرفك،

إنها تراك الآن ! وروحي كلها تنفتح،

لتعبدك أنت وحدك إلى الأبد،

والقلب يفيض كله بالحنان

إنها هى . أراها أمامى . يا له من شعور!

أهى الحيرة التي تدفعنى إليك؟

أهو الجنون ؟ أم حس عال
ينتشى بالحقيقة السامية الصافية ؟
نعم ! إنها العاطفة التي تستطيع وحدها
أن تهبنى السعادة على هذه الأرض .
وهى وحدها التي قدرت شقائى ،
حين قاومتها وأردت أن أنفيها من القلب .
هذه العاطفة هى التي حاولت أن أحاربها ،
وصارعت وصارعت صميم كيانى
وهدمت فى غضبى الأحمق ذاتى ،
التي عرفت أنك لها وحدها .
الأميرة : تاسو ! إن كنت حريصاً على أن أسمعك ،
فكفكف هذا اللهب الذى يفرعنى .
تاسو : هل تمنع حافة الكأس النبىذ
من أن يطفح ويزيد ويفور ؟
كل كلمة منك تزيد سعادتى ،
ومع كل كلمة تتألق عيناك .
أحس أننى تغيرت فى أعماقى
وأننى تخلصت من كل همومى وأعبائى
وأصبحت حراً كإله ، وكل هذا بفضلك !
القوة الغامضة التى تتحكم فى حياتى
تتدفق من شفطيك . نعم ! أنت تملكين وجودى .

لم يعد لى شىء أملكه من نفسه
عينى تعشى فى وميض السعادة والنور،
وجدانى يترنح ويضطرب ، ساقى ترتعش ،
أنت تشدينى نحوك فلا أملك أن أقاوم،
أو أمنع قلبى الذى يندفع إليك .
ملكتنى إلى الأبد بين يديك
فخذى وجودى كله إليك !
(يلقى نفسه بين ذراعيها ويضمها بشدة إلى صدره)
الأميرة : (تدفعه عنها وتبتعد بسرعة) . ابتعد !
ليونورا : (التي ظهرت منذ قليل فى مؤخرة المسرح تسرع
مقبلة) .
ماذا حدث ؟ تاسو ! تاسو !
(تتبع الأميرة)
تاسو : (الذى يريد أن يتبعهما) : آه يا إلهى !
ألفونس : (الذى اقترب منذ قليل مع أنطونيو) :
لقد جن جنونه ! أوقفوه ! (يخرج)

المشهد الخامس

(تاسو - أنطونيو)

أنطونيو : أنت يا من تعتقد دائماً أن الأعداء يحيطون بك

كم يحس العدو بالانتصار لو رآك الآن !

أيها الشقي ! إننى لا أكاد أفيق من ذهولى !

عندما نفاجأ بشيء لم نكن نتوقعه،

عندما تقع أنظارنا على شيء رهيب

يتوقف العقل لحظة كالمشلول :

ولا نجد وصفاً لهذا الشيء المجهول .

تاسو : (بعد فترة صمت طويلة) :

أتمم مهمتك - إنى أراك الآن على حقيقتك !

نعم ! إنك تستحق ثقة الأمير فيك

أتمم وظيفتك ! استمر فى تعذيبى !

انكسرت عصاى فعذبنى فى ببطء حتى أموت !

اغرز ! اغرز السهم حتى أحس بالكُلاب

يغوص فى لحمى ويمزقنى !

أنت أداة طيعة فى يد الطاغية؛
كن السجان وكن الجلاد
فكلاهما يليق بك !
(يدير وجهه ناحية المشهد)
نعم ! استمر أيها الطاغية !
لم تستطع أن تلبس القناع للنهاية، انتصر !
عرفت كيف تقيد العبد بالأغلال،
وكيف تدخره لعذاب أفظع :
استمر فى عملك، فإننى أكرهك
وأحس بالبشاعة التى تثيرها فى نفسى
القوة المستبدة التى تفتك بالأبرياء
(بعد فترة صمت)
وهكذا أرانى فى نهاية المطاف
طريداً منفياً كائننى شحاذا !
لم يتوجوا رأسى إلا ليزينوا
الضحية التى يقدمونها إلى المذبح .
هكذا جردونى فى يومى الأخير
بألفاظهم المعسولة من كنزى الوحيد،
من قصيدى الذى لن يردوه إلى !
من ملكى الوحيد الذى كان ممكناً
أن يضمّن لى الحفاوة فى كل مكان

أزوره ويحمينى من الجوع !
الآن أرى لماذا أردتم لى أن أستريح .
إنها مؤامرة، وأنت رأس المتآمرين :
لكى تبقى قصيدتى إلى الأبد ناقصة
لتحرموا اسمى من المجد والشهرة
ليجد حسادى ألف عيب يأخذونه علىّ
ولأسقط أخيراً فى هوة النسيان .
ألهذا أردتم لى الراحة والفراغ ؟
ألهذا دعوتموننى لأحفظ نفسى وأدخر قواى ؟
يا للمحبة الصادقة ! يا للعناية الرءوم !
كنت أتخيل بشاعة المؤامرة
التي تحاك لى بلا هوادة فى الظلام،
وها هو الواقع أبشع من كل خيال !

وأنت أيتها الساحرة الخئون !
يا من جذبتنى برقة السماء
ها أنا ذا أراك الآن على حقيقتك !
يا إلهى ! لماذا لم تُفتح عينائى قبل الآن !

بيد أننا نحب أن نخدع أنفسنا بأنفسنا
ونكرم كل نذل دنىء يكرمنا .
إن الناس يجهلون بعضهم البعض؛
أما عبيد الحرب الذين يجلسون لاهئين مغلولين على
مقعد واحد،
فأولئك هم الذين يعرفون بعضهم البعض؛
وحيث لا يطلب أحد من صاحبه شيئاً،
ولا يخشى أن يفقد شيئاً،
وحيث يكشف كل واحد عن خبثه،
ولا ينتظر من جاره إلا الخبث،
فأولئك يعرف بعضهم البعض .
لكننا لا نأمل غيرنا حين نخدع أنفسنا فيهم،
إلا لكي يكون من حقنا أن نطلب منهم المجاملة نفسها .

صنمك الذى عبدته كل هذا الزمن
كان يحجب عن المرأة اللعوب .
سقط القناع، وأرى الآن أرميد
عارية من كل سحرها - نعم ! أنت هى '
وكم تغنت قصيدتى بهذه الأحاسيس '

والوسيلة الصغيرة الماكرة
كم سقطت الآن من عيني !
ما زلت أسمع حفيف خطواتها الناعمة حولي
وأعرف الآن الهدف من دسها وكيدها .
إنني أعرفكم الآن جميعاً ! وكيفيني هذا !
وإذا سلبني حظي الشقي من كل شيء
فسأعرف فضله على إذ كشف لي الحقيقة .

أنطونيو : إنني أسمعك يا تاسو في ذهول
بالرغم من علمي أن عقلك المندفع
يتذبذب في سهولة من طرف إلى طرف .
عد إلى نفسك ! تحكم في هذا الغضب !
إنك تجدف من كلمة إلى كلمة،
وتأتى ذنباً إن غفرتها لك ألامك،
فلن تغفرها لنفسك أبداً .

تاسو : آه لا تخاطبني بكل هذه الرقة، ولا تحاول
أن تعيد إليّ الهدوء بكلماتك العاقلة !
دعني أتمتع بلذة الجنون الكئيبة
لكي لا أعود إلى عقلي لحظة فأفقد .
أحس في أعماقي أن هيكلي تهشم،
ولست أعيش إلا لأجل هذا الإحساس .
اليأس يقبض عليّ بكل قسوته،

وفى جحيم العذاب الذى يفننى
لا يكون التجديف إلا شكوى ضعيفة .
أريد أن أرحل ! فإن كنت صادقاً
فأثبت لى هذا، ودعنى أفر فى هذه اللحظة !
أنطونيو : لن أتخلى عنك فى هذه الشدة؛
وإذا كنت قد فقدت التحكم فى نفسك،
فإنى لن أفقد الصبر معك .
تاسو : أعلّى إذن أن أستسلم لك ؟
ها أنا قد سلمت، وتم الأمر :
لن أقاوم، وها أنا قد استرحت -
ودعنى أكرر الآن فى ألمٍ،
كم كان جميلاً ما أضعته من يدي .
ها هم قد ابتعدوا - يا إلهى !
إنى أرى الغبار الذى يرتفع خلف عرباتهم .
الفرسان فى المقدمة . إنهم يسرون
على الطريق نفسه، الذى جئت منه .
إنهم يرحلون، غاضبين عني
لو أنني استطعت أن أقبل يده !
لو أنني استطعت أن أودعه
وأقول به لنمرة الأخيرة : أعف عني !
وأسمعه يقول . سب فقد عفوت عنك !

لكننى لا أسمعها منه ولن أسمعها أبداً .
أريد أن أذهب إليه ! دعونى أودعه
ولا أطلب شيئاً غير هذا الوداع !
أعطونى ! أه أعطونى هذه اللحظة مرة واحدة !
فربما شفيت ، لا ، إننى طريد ، إننى منفى .
أنا الذى نفيت نفسى بنفسى .
لن أسمع هذا الصوت أبداً .
لن ألقى هذه النظرة أبداً .
أنطونيو : حاول أن تنصت إلى صوت رجل،
لا يستطيع أن يسمعك بغير تأثر !
لست شقياً إلى الحد الذى تظن
تمالك نفسك ! جرب أن تقاومها !
تاسو : هل بلغت من البؤس ما يبدو على ؟
هل بلغت من الضعف ما يظهر لك ؟
هل ضاع إذن كل شيء ؟
هل زلزل الأكم بنيانى،
وحولّه إلى ركام من الأنقاض ؟
ألم تبق لدى موهبة تحمينى وتقدم لى ألف عزاء ؟
هل انطفأت كل القوة التى كانت تجيش فى صدرى ؟
هل أصبحت عدماً ؟ هل فنى وجودى ؟
لا ! إن كل شيء كما هو، لكننى أصبحت عدماً .

لقد تخلّيت عن نفسى وتخلّيت عنى .

أنطونيو : إذا ظننت أنك قد فقدت كل شيء

فقارن نفسك بغيرك، واعرف من أنت !

تاسو : أجل ! إنك تذكرنى بنفسى فى اللحظة المناسبة ! -

ألم يبق لى مَثَلٌ أَعْلَى، أَسْتَمِدُهُ مِنَ التَّارِيخِ ؟

ألا يتمثل لى بطل، تعذب أكثر مما تعذبت

فأتماسك حين أقارن نفسى به ؟

لا ! لقد ذهب الجميع ! ولم يبق لى سوى شيء

واحد :

الدمعة التى أهدتها لنا الطبيعة، وصرخة الألم

التي يطلقها الإنسان حين يعجز عن الاحتمال .

وأنا الذى احتفظت بهذا الهدية السامية -

تركت لى فى الألم اللحن والخطاب،

لأشكو همومى كلها فى نشيدى :

وإذا ما أخرس الإنسان عذابه

وهبنى الرب أن أعبر عن عذابى

(أنطونيو يتقدم نحوه ويتناول يده) :

تاسو : أه أيها الصديق النبيل ! إنك تقف ثابتاً وهادئاً

بينما أبدو كالموجة التى تتقاذفها العاصفة .

ولكن تريث ولا تغتر بقوتك !

فالطبيعة الجبارة التى بنت هذه الصخرة الراسخة،

قد أعطت الموجة القدرة على الحركة .
إنها ترسل عواصفها، فتفر الموجة
وتتأرجح وتنتفخ وتثور مزبدة .
على هذه الموجة كان ينعكس ضياء الشمس الجميل،
وفوق هذا الصدر الذى تحركه نسمة خفيفة
كانت تستريح النجوم .
الآن اختفى الضياء، وتبددت الراحه .
لم أعد أعرف نفسى فى وسط الأخطار
ولا عدت أشعر بالخجل من هذا الاعتراف .
انكسر الجداف، وبدأت السفينة تتحطم من
ناحية .
والأرض راحت تَنشَقُّ تحت قدمى !
ها أنا ذا أمسك يديك، وأضمك بذراعى
كما يتشبث الملاح فى النهاية
بالصخرة التى سيتحطم عليها .

تمت

التصحيح اللغوى : عزت سلامة
الإشراف الفنى : حسن كامل



يوهان فولفجانج جوته

تاسو

ترجمة وتقديم: عبدالغفار مكاوي



ماذا نقول عن هذه القصيدة الطويلة الحزينة التي
نسميها تاسو؟ أهى دراما أم مأساة، أهى قديمة أم
حديثة؟ إننا نحار أمام هذا النسيج الرقيق الدقيق
الذي لا يكاد يحدث فيه شيء، ومع ذلك فكأن
الضرورة هي التي نسجت خيوطه، ونعيش في
عالمه الأنيق الجميل ومع ذلك يترك في نفوسنا
شيئاً يشبه الفزع الذي تتركه فينا المأسى الإغريقية
حين نشعرنا بقسوة القدر الظالم المجهول. كيف
يمكن أن تكشف هذه الحياة المنمقة الزاهية عن هوة
من الحزن بلا قرار.